توظيف الوقت واستثماره في ضوء نصوص الوحي

أ. د. زياد خليل الدغامين *

تاريخ وصول البحث: ٢٣/٤/٢٠٠٨م　　تاريخ قبول البحث: ٢٩/٦/٢٠٠٨م

ملخص

تناول هذه البحث مسألة من المسائل المتعلقة بالوقت من حيث توظيفه واستثماره في ضوء نصوص الوحي، فبيّن أهميته بالنسبة إلى الإنسان وأنّه نعمة من الله عليه، أجراه تعالى وفق سنن تنتظم بها حياة الإنسان، وبيّن الخسائر الفادحة المترتبة على إهماله، وأنّ الأمة لن ترقى ماديا ولا معنويا إلا إذا أحسنت توظيف الوقت واستثماره. وتبيّن في ضوء نصوص الوحي مسؤولية الإنسان عنه، وتعليمه الإنسان كيف ينظم وقته ويحسن توظيفه، وأثره في نهضة الأمة، ومسؤولية الإنسان عنه يوم القيامة.

وبيّن أن نصوص الوحي تتجه لتوظيف الوقت في ثلاث طرق: الأولى: في إعمار الصلة بالله تعالى، والثانية: في إعمار الصلة بالنفس، والثالثة: في إعمار الصلة بكل من حولنا، وكل ما حولنا من مظاهر الكون.

وتوجّه البحث لبيان توظيف الوقت في إعمار الكون، وما يترتب على ذلك من آثار، وتبيّن ضرورة أن تحتل كل دقيقة مكانها في سلم التنمية وكمّ الإنتاج.

Abstract

This work deals with the time under the light of the revelation. How can we benefit from it.

This research shows that the revelation texts have assigned the time to build astrong relation between man and Allah (God), and reform the relation between man and himself, and all the creatures around.

مقدمة:

لعلّ من أهم نعم الله تعالى على الإنسان تلك الفترة الموهوبة له الممتدّة من الميـــلاد إلى الممات، وتشتدّ أهمية هذه الفترة بعد البلوغ؛ إذ يدخل الإنسان بها مرحلة الاختبار الفعلي، والابتلاء المقدّر بوقت محدود والذي فرضه الله تعالى على كلّ إنسان عناية به وتربية له في هذه الحياة، لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، وهي فترة تمثّل رأس المال الحقيقي لكلّ إنسان في هـــذا الوجود، فكيف يمكن له أن يستثمره استثمارا صحيحا يعود عليه بالنفع في الحياتين: الأولى والأخرى؟ بل كيف يمكن توظيفه في إعمار الكون بما يحقّق للأمة النهضة والرقيّ والشهود الحضاري؟ "إنّ الوقت -كما يذكر مالك بن نبي- هو العملة الوحيـــدة المطلقة التي لا تبطل، ولا تسترد إذا ضاعت، إنّ العملة الذهبية يمكن أن تضيع، وأن يجدها المرء بعد ضياعها، ولكن أيّ قوّة في العالم لا تستطيع أن تحطم دقيقة، ولا أن تستعيدها إذا مضت. إنّ الأمة الإسلامية لم تدرك بعد قيمة الوقت أو فكرة الزمن وإن عرفته فهو الوقت الذي ينتهي إلى عدم، إنّه بتحديد فكرة الزمن يتحدّد معنى التأثير والإنتاج، وهو معنى الحياة الحاضرة الذي ينقصنا. هذا المعنى الذي لم نكسبه بعد هو مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط، في تكوين المعاني والأشياء(١).

وممّا يؤكد هذا الكلام، الكلفة الباهظة للوقت الضائع أثناء الدوام الرسمي في معظم مؤسسات القطاع الحكومي في بلد عربي قليل في تعداد سكانه، فبناء على دراسات علمية تبيّن أنّ متوسط الوقت الضائع بلغ (٩٨,٨) ساعة عمل سنويا لكلّ موظف، وبحسبة كلفة

* أستاذ، كلية الدراسات الفقهية والقانونية، جامعة آل البيت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ساعة العمل في حدّها الأدنى بلغت كلفة الوقت الضائع قرابة ٣٠٠ مليون دولار[٢]. وسبب هذه الخسارة التهرّب من العمل أثناء وقت العمل؛ لعدم الجدّية أو عدم الأهلية، أو لقضاء مصالح شخصية، أو لغيرها من الأسباب!

وهذا يعدّ سرقة حقيقية تتسبّب في خسارة فادحة للقطاع العام، وتؤكّد أنّ الأمّة لم تدرك قيمة الوقت بعد! وأنّها بعيدة عن الخطوة الأولى على طريق النهضة والتقدّم! وتفتقر إلى معرفة كيفية استثمار الوقت وتوظيفه حتى في وقت العمل نفسه.

ومن المشكلات التي ألقت بظلالها في السّاحة الإسلامية ما يعرف بـ"وقت الفراغ" أو كما سمّاه بعضهم "الوقت الحر"[٣] وما له من خطورة على الفرد والأمّة، وتعدّ معالجته والسيطرة عليه من الضرورات الملحّة؛ "ذلك أنّه يسدّ منافذ الغزو الثقافي والقيمي الأجنبي للأمّة؛ لأنّ طبائع النفس تميل بها إلى كلّ جديد، وكلّما مالت النفس إلى الاسترخاء أو الخواء كانت أكثر انجذابا إلى هذا الذي يبدو طريفا وبديعا في ظاهره. ووقت الفراغ هو أكثر الأوقات ملاءمة لتحقيق الاسترخاء الفكري، أو هشاشة الضبط القيمي، هذا أولاً، وأمّا ثانياً، فلأنّه يتسبب في إهدار طاقات الأمّة الفاعلة، وحرمانها من نعمة التأمل والتفكر، والبحث عن صورة أكثر إشراقا للمستقبل المأمول. وأمّا ثالثا، فلأنّه يتيح للأمّة ضمان تجدّد حيوية الفعل الإنساني، وتنشيط طاقاتها. إنّ غياب السيطرة على "وقت الفراغ" يفوّت تلكم القيمة الهامّة لوقت الفراغ، مما يؤدّي إلى استمرارية الإجهاد الذهني العام، الأمر الذي ينعكس سلبيا على إنتاجيتها فكريا وفنيا وماديا"[٤]. إن وقت الفراغ أو الوقت الحرّ بهذا المفهوم يهمّش مساحات واسعة من حياة الفرد والأمة، ويذهب بثروة "الوقت" التي لا تقدر بثمن، ولا يتسنى لأمّة فقدت قيمة الوقت أن تنهض أوترقى، أو أن يتصوّر لها مستقبل فاعل في واقع الوجود.

وهذا ينبّئ عن أنّ عدم القدرة على استثمار الوقت، وعدم إدراك قيمته وأهميته، ومحاولة تضييعه وقتله عن سبق تعمّد وإصرار، أو ترك الفضائيات الفارغة وبرامج الضحك والتسلية أن تهيمن عليه، إضافة إلى شيوع ظاهرة "وقت الفراغ" أو "قتل الوقت" ...، كلّ ذلك إشكاليات ومعضلات تشكل خرقا واسعا في نهضة الأمّة؛ لغياب رأس المال الحقيقي -وهو الوقت- عن أدائه الفاعل في عملية الإصلاح والنهضة.

وجاءت الدراسات السابقة بعيدة عن هذه الجزئية في دراسة موضوع الزمن أو الوقت، ناظرة إليه في خطوط عامة عريضة، فممّا كتب من دراسات:

- إدارة الوقت، وهو مؤلف علمي لنادر أبو شيخة، تناوله من منظور إداري، صدر عن دار مجدلاوي في عمّان ١٩٩١م، بيّن فيه خصائص الوقت، وتسجيل الوقت وتحليله، وتحديد الأهداف والأولويات، وتخطيط الوقت، ومضيّعات الوقت وكيفية السيطرة عليها، وإدارة الاجتماعات، وتفويض السلطة بوصفه أسلوبا من أساليب إدارة الوقت، ولكنه لم يبيّن هذه الإدارة للوقت من منظور نصوص الوحي، بل اقتصر على حلول نظرية يعوزها ضمانات مؤثرة لمعالجة مشكلات ضياع الوقت وعدم استثماره.
- الزمن في القرآن، وهي رسالة ماجستير مسجلة في جامعة آل البيت ١٩٩٩ أعدّها عودة عبد الله، تحدّثت عن معنى كلّ ما ورد في القرآن من إشارات للوقت، وبيان مفهومها والأوقات الفاضلة فيها، لكنها لم تتناول موضوع توظيف الوقت واستثماره.

وستحاول هذه الدراسة أن تسهم في بيان استثمار الوقت أو توظيفه في ضوء نصوص الوحي، فتتناول قيمة الوقت، والوقت في نصوص الوحي، وطرق استثماره وتوظيفه في إعمار الكون، لتقع في تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التمهيد: في قيمة الوقت في حياة الإنسان.

المبحث الأول: الوقت في نصوص الوحي.

المبحث الثاني: طرق استثمار الوقت.

المبحث الثالث: توظيف الوقت في إعمار الكون.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج الدراسة.

تمهيد
في قيمة الوقت في حياة الإنسان

تنظر نصوص الوحي إلى الوقت من حيث الأهمية والقيمة بقدر ما يمكن إنجازه فيه من أعمال،"فهو عمر الحياة، وميدان وجود الإنسان، وساحة ظله وبقائه، ونفعه وانتفاعه"(٥). وهو المعيار الذي يقاس به حقيقة الوجود الإنساني من حيث كمّ الأعمال والمنجزات التي تتحقّق فيه، فكم من أمّة غائبة بسبب ضآلة منجزاتها وعجزها عن إدراك ما للوقت من قيمة وأهمية! لقد عمل الزمان فيها دون أن تعمل فيه، فغيّبها التاريخ وطواها من صفحاته.

لقد جعل الدهريّون الزمن مؤشرا ماديا على حياتهم أو موتهم، وجعلوا منه عنصرا باقيا لا يفنى، فقالوا بأزلية المادّة وقدم العالم، قال تعالى: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾**[٢٤: الجاثية]. "ومعنى الدهر: طول الزمان"(٦). ومعنى هذا -عندهم- أنّ الزمان قد اختفت منه كلّ المعايير والقيم، بل لم يعد فيه قيمة للمثل والمبادئ والعقائد والأعمال. واختفاء هذه المعاني كلّها يؤدّي إلى انفلات الزمان؛ ليسير فيه الإنسان على غير هدى، ويحيا فيه على غير رشد، عندها لا يصبح للفعل الإنساني أثر ولا قيمة. لقد تأكد هذا المعنى في قوله تعالى: **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾**[١: الإنسان] حين كان الإنسان في عدم، والعدم ظلمة وشرّ، ثمّ امتنّ الله عليه بنعمة الوجود، والوجود نور وخير، وبقدر تمكن الإنسان من ترك بصمات في هذا الوجود يرقى في سلّم الكمال، وتكتب له الذكرى بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، كأنّ الذكرى في سباق مع العدم، وكأنّ الإنسان بين مطرقة العدم وسندان الوجود والذكرى، فإمّا أن يحكم على نفسه بالعدم حيـن يمتطي هوى نفسه في الحياة ويُفني عمره في اتّباع الشهوة، وإما أن يسطّر خلودا مشرفا بأعماله الصالحة تُبقي ذكراه في الملأ الأعلى إلى قيام الساعة، بل في الحياة الآخرة كذلك.

واللافت للنظر أنّ الإنسان يعشق البقاء والخلود في حياة آمنة، فقد دغدغ الشيطان عواطف آدم عليه السلام بهذا الشعور: **﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾**[١٢٠: طه]، وهذا شعور فطري صادق في الإنسان لا يمكن أن يكذب، فالإنسان لا يرضى بغير الأبد والأبدي، ولا تتوجّه نفسه إلا إلى ذلك الخالد، ولا تتنزل نفسه لسواه، حتى إذا ما أعطيت له الدنيا فلا تطمئن تلك الحاجة الفطرية، إنّه إحساس فطري عميق متأصّل في وجدان الإنسان، ولما كانت الدنيا دار فناء لا تتسع لتحقيق رغبات الإنسان وتلبي هذا الجانب فيه(٧)، فقد وعد الله الإنسان بالخلود في الجنّة إن أفنى عمره ووقته في الطاعة والعمل الصالح، أو الخلود في النار إنّ أفنى ذلك العمر والوقت في اللهو واللعب. وفي هذا السياق يتساءل ابن قيم الجوزية رحمه الله مبيّنا حكمة الخالق جلّ وعلا في التكليف، فيقول: "كيف بمصالح الحياة الأبدية الدائمة والنعيم المقيم؟ كيف لا يكون الآمر بالتعب القليل في الزمن اليسير الموصل إلى الخير الدائم حكيما رحيما محسنا ناصحا لمن يأمره وينهاه عن ضده من الراحة واللذة التي تقطعه عن كماله ولذته ومسرتّه الدائمة؟ هذا إلى ما في أمره ونهيه من المصالح العاجلة التي بها سعادته وفلاحه وصلاحه ونهيه عما فيه"(٨).

إنّ الوقت هو رحم الوجود الإنساني بل الوجود الكوني كلّه. وهو قدر محتوم على الإنسان لا يستطيع إطالته أو الاستزادة منه في الحياة الدنيا، بل إنّ أحدا من الخلق لم يستطع الخلاص من قيوده، أو الإفلات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من زمانه في الحياة الدنيا، ولم يتحقق ذلك إلا لاثنين من الأنبياء، نبي الله سليمان عليه السلام، ونبيّ الله محمّد ﷺ، أمّا سليمان عليه السلام فحينما أحضر عرش ملكة سبأ، وهي آية بيّنة، وقدرة خارقة تمت بتأييد الله تعالى له، وقد نبّهت على اختصاره واختزاله للوقت بما أنجز من عمل، ووظّف من إمكانات بتوفيق من الله سبحانه. وأما محمّد ﷺ فحين أسري به إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السموات العلى في جزء من الليل، "لقد انبسط له ﷺ في معراجه دقائق معدودة إلى سنين عدّة، فكانت لساعات المعراج من السّعة والإحاطة والطول ما لألوف السنين، إذ دخل ﷺ بالمعراج إلى عالم البقاء، فدقائق معدودة من عالم البقاء تعدل ألوفا من سنيّ هذه الدنيا"[٩]. يدلّ لذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [الحج: ٤٧]. وهذا يعني أنّ التصرّف في هذا المخلوق – الوقت- إبقاءً وإفناءً شأن إلهي خالص، وأنّ حلم البقاء الذي يراود الإنسان في كلّ وقت ولا يغيب عن مخيلته هو الحلم الذي لن يتحقّق له إلاّ حين ترتفع قيود الوقت وفاعليته، وذلك يوم القيامة؛ فيعيش أهل الجنة في عالم البقاء، وأهل النار في جهنم خالدون.

لقد أدرك السلف قيمة الوقت والحرص على عدم ذهابه هباء منثورا، فحرصوا على عدم إنفاقه إلا في طاعة أو قربة إلى الله تعالى، وحذروا من هدره، ففي هدره إضاعة لأنفس ما يمتلكه الإنسان، يقول الصحابي أبو الدّرداء رضي الله عنه: ابن آدم ! طأ الأرض بقدمك فإنّها عن قليل تكون قبرك! ابن آدم! إنّما أنت أيّام، فكلما ذهب يوم ذهب بعضك. ابن آدم! إنّك لم تزل في هدم عمرك منذ يوم ولدتك أمك[١٠]. فقد شبّه العمر بالبناء الذي يهدم صاحبه في كلّ يوم منه لَبِنة. وإن لم ينفق وقته في طاعة فتلك خسارة الدنيا قبل خسارة الآخرة.

وروي في الأثر: ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادي فيه: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد، فاعمل فيّ خيرا أشهد لك به غدا، فإني لو مضيت لم ترني أبدا"[١١]. فكيف يستطيع الإنسان أن يعيد يوما مرّ عليه! إنّ هذا لن يتحقق لا في الحياة الدنيا، ولا في الحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠] إنّ تمنّي العودة وما يتبعه من أسى وندم كان بسبب هدر الوقت فيما يضرّ ولا ينفع، ودون أن يستثمر الإنسان وقته في العمل الصالح الذي يسطّر به خلودا في عالم البقاء.

ويذكر ابن الجوزي أنّـــه: "ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه و قدر وقته فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول و العمل، ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور"[١٢].

وذكر ابن قيم الجوزية في رسالته إلى أحد إخوته أنّ: "كلّ آفة تدخل على العبد فسببها ضياع الوقت، وفساد القلب، وتعود بضياع حظه من الله، ونقصان درجته ومنزلته عنده؛ ولهذا وصّى بعض الشيوخ فقال: احذروا مخالطة من تضيع مخالطته الوقت، وتفسد القلب، فإنّه متى ضاع الوقت وفسد القلب انفرطت على العبد أموره كلّها، وكان ممّن قال الله فيه: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾[الكهف: ٢٨]"[١٣]. من هنا-أيضا- تتبع أهمية الوقت في حياة الإنسان، من حيث إنّ كلّ دقيقة، بل كلّ ثانية معدودة عليه، فإذا انقضت فلن تعود أبدا.

لقد تكاثرت نصوص الوحي قرآنا وسنة تلك التي تدعو إلى توظيف الوقت وحسن استثماره تنبيها على أهميته في حياة الإنسان فردا كان أو جماعة، فبهذا العمر المحدود يمكن للإنسان أن يرقى عند الله إلى حياة غير محدودة يوم القيامة، فهو رأس المال الحقيقي بالنسبة للإنسان إن أحسن توظيفه واستثماره فيما ينفعه، وفيما يرقى به إلى أعلى عليين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول
الوقت في نصوص الوحي

ورد مصطلح الوقت في القرآن الكريم مرتبطا بحلول الأجل المحتوم لنهاية الحياة الدنيا، وبدء اليوم الآخر، وهو ما ورد في قصة آدم عليه السلام حين طلب إبليس من ربّه أن ينظره إلى يوم يبعثون: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[٣٦-٣٨: الحجر]، [٧٩-٨١: ص]، أي: إنّ ذلك كائن في حكم الله وقضائه منذ الأزل، لا أنّه سبحانه استجاب طلب إبليس لعنه الله. وتأكيدا لهذه الحقيقة يقول ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[٤٩-٥٠: الواقعة]. وهذا معظم ما اتصل به الوقت في القرآن الكريم، أي: نهاية الدنيا وبدء الحياة الآخرة، وهو ينبّئ عن تصوّر وعقيدة يؤكدها الوحي للخلائق كلّها، وبخاصّة لأولئك الذين استكبروا في الأرض وكانوا فاسقين. وهو ينبّئ كذلك عن أنّ أهمّ ما ينبغي أن تتوجّه له الهمم في هذا المقام هو الإعداد لذلك الوقت أو ذلك الميقات، ويتأكد هذا المعنى في هدي الرسول حين سئل عن الساعة، وسيأتي بيانه.

وفي بيان مفهومه وما يتصل به من معنى، يقول الراغب الأصفهاني: "**الوقت**: نهاية الزمان المفروض للعمل؛ ولهذا لا يكاد يقال إلا مقدرا نحو قولهم: وقت كذا: جعلت له وقتا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[١٠٣: النساء] وقوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾[١١: المرسلات]. و**الميقات**: الوقت المضروب للشيء والوعد الذي جعل له وقت، قال ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٤٠: الدخان]، ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾[١٧: النبأ]... وقد يقال الميقات للمكان الذي يجعل وقتا للشيء كميقات الحج"(١٤) وربط الأصفهاني الوقت بالعمل في تعريفه عبقرية منه ودقّة في توخّي المعنى الدقيق للمفردة القرآنية، فالوقت لا يعرف إلا بما ينجز فيه من عمل، كأنّ الوقت خارج العمل لا معنى له ولا قيمة ترتجى منه.

أما مصطلح الزمن فلم يرد في شيء من نصوص القرآن الكريم، وتفسير ذلك، أنّ الزمن هو ذلك الوقت المضروب منذ بدء الخليقة، بل قبل ذلك إلى نهاية الحياة على وجه الأرض، والذي يهمّه هو الوقت الذي يرتبط به وجوده وحياته وأجله، ولكنه ورد في السنّة النبوية بمعنى مطلق الوقت، قال ابن الأثير: "والزمان يقع على جميع الدهر وبعضه"(١٥). وورد في الحديث تقارب الزمان واستدارته...، ففي الحديث: "إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب"(١٦)، فاقترابه على الراجح هو انتهاء مدّته إذا دنا قيام الساعة كما قال ابن حجر(١٧). وقد يتوجّه معنى تقارب الزمان إلى ما يمكن إنجازه فيه من أعمال، فالمسافة التي كان يقطعها المسافر من بغداد إلى مكة في شهرين أو أكثر، تتم اليوم في أقلّ من ثلاث ساعات، وقد لا تستغرق دقائق معدودة في مستقبل الأيام.

ويعدّ الوقت وتصريفه في حياة الخلائق نعمة إلهية كبرى، لارتباط حالها فيه على نحو من الراحة والاستقرار، ففيه يكتشف الإنسان نفسه، وفيه يتدبّر أمره، وفيه ينمّي مواهبه ويطوّر قدراته، وفيه يرقى إلى أعلى عليين، وهو الفترة الكافية لاختبار العبد بالإيمان والعمل الصالح، ويتحوّل الوقت إلى عكس ذلك كلّه إن أهمله صاحبه، وتنزّل عن مرتبة الإنسانية.

لقد ورد في نصوص الوحي أنّ الليل والنهار اللذين يستغرقان الوقت كلّه بالنسبة إلى سكان الأرض من الخلائق آية من آيات الله حرية بالنظر والتفكر، وردا بوصفهما آيتين من آيات الله من حيث اختلافهما وتعاقبهما وتقليبهما مراعاة لمصالح الخلائق، وإيلاج أحدهما في الآخر، وسلخ أحدهما من الآخر، وتكوير أحدهما على الآخر، يشهد لذلك العديد من الآيات القرآنية(*).

وهذه الآية في تصريف الوقت مدعاة للتفكر وشكر المنعم سبحانه كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[٦٢: الفرقان] فكيف لو انقلبت إلى الضدّ فكان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كلّ منهما سرمديا كيف سيقيم العباد مصالحهم ويتدبّرون معاشهم وشؤونهم؟ يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٧١-٧٢: القصص].

وكان الوقت أو بعض أجزائه مدعاة لأن يقسم الله تعالى به في كتابه، فقد أقسم الله سبحانه في كتابه بالصبح والضحى، والليل والنهار، والفجر والعصر، فشمل القسم كلّ تقلبات الوقت: عصرا وفجرا، وصبحا وضحى، ونهارا وليلا، بل أقسم بليال معينة، ونبّه على أوقات محدّدة، والقسم فيه تعظيم للمقسم به، ليدلّ الناس على أهمية الوقت وقيمته التي قد يغفلون عنها. ووقع القسم بمعظم أوقات اليقظة: النهار، والضحى والفجر والعصر؛ ليدل بذلك على انبعاث النشاط الإنساني بالفعل والحركة والحياة فيها، لتتجلى أهمية الوقت وأثره في حياة الإنسان.

لقد حكمت سورة العصر -مثلاً- على الإنسان بالخسران المحقّق؛ لإهماله الوقت، وإهماله الفعل فيه، يقول سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[١-٢: العصر]، لكن الذين أحسنوا استثماره بالإيمان والعمل الصالح، واتّخذوا التّواصي بالحقّ والانتصار له سبيلا، وربطوا على ذلك أنفسهم صابرين محتسبين، هؤلاء كتبت لهم النجاة من تلك الخسارة المحقّقة؛ لأنّهم أدركوا قيمة الوقت فعمروه بالإيمان والعمل، كما في قوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٣: العصر]. هذه الأعمال التي تبدو في نظر الناس لا قيمة لها في الواقع العملي يعدّها القرآن أعمالاً حقيقية كبرى، بل إنّ إهمالها يجلب خسارة خالدة للإنسان. إنّ الخروج من الخسران المحقّق لا يتم إلا بإفناء الوقت في الإيمان والعمل الصالح؛ فالتواصي بالحقّ يضع حدّاً لكل سفاهات الجهل والكفر والنفاق، والظلم والشقاق، والكذب والغش والرياء، والسرقة والرشوة وانحدار الأخلاق... وبإمكان المرء أن يتصوّر أثر ذلك وانعكاسه على أخلاقيات العاملين في مؤسسات القطاعين العام والخاص في كلّ دولة! وكم من مؤسسات ضخمة انهارت بفعل عدم الانتباه لهذه النواحي غير المنظورة في سلوك ومعتقدات المنتسبين إلى هذه المؤسسات. لماذا تعاني ميزانيات دول العالم العربي والإسلامي من عثرات هائلة، واعتداءات صارخة؟ ولماذا تتحمل الشعوب مسؤولية انعدام هذه القيم في سلوك العاملين في هذه المؤسسات! ولماذا الغفلة عن هذه المؤهلات عند تعيينهم في تلك المناصب ضاربين بعرض الحائط مؤهلات الإبداع والتفوّق والكفاءة، فضلا عن مؤهلات الصدق والعفّة والأمانة!

والتّواصي بالصبر يضمن استمرارية بذل النصح والتّواصي بالحقّ، وتغيير المنكر، والتحذير من خطره، فهـو دستور عظيم، ومبدأ كبير فاعل يضمن لكل مؤسسة، بل لكل دولة أن تظل في برّ الأمان بعيدة عن أن تتطرق إليها عوامل الضعف والانهيار، أو أسباب التراجع والانحسار.

كذلك، يتأكد هذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾[١-٤: الليل] لقد تحقّق القسم بالليل والنهار ويمثلان امتداد الوقت الموهوب للإنسان، وأقسم بكل مخلوق ذكر وأنثى، والاقتران بين الوقت والإنسان للصلة التي لا تنفك بينهما، ويأتي جواب القسم مبيّنا اختلاف السعي الذي يتم في حاضنة الوقت، وكأنّه يحذّر من أن يذهب الوقت في غير طاعة وقربة إلى الله تعالى. قال ابن قيم الجوزية: "أقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار، وبالساعي وهو الذكر والأنثى، على اختلاف السعي كما اختلف الليل والنهار والذكر والأنثى وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنّه سبحانه لا يسوّي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسوّ بين الليل والنهار والذكر والأنثى، ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء..."[١٨].

وهنا لا بــدّ من تساؤل يطرح نفسه بقوّة، ما الأساس الذي بني عليه هذا الاهتمام العظيم بالوقت؟ ولا يخفى أنّ هناك أموراً عديدة جعلت الوقت من أنفس ما يملك الإنسان، من أهمها: تكليف العبد بما اقتضته الحكمة الإلهية، فهو مطالب بأفعال وأعمال ومهامّ يجب إنجازها في إطار ما منح له من أجل محدود. وقد نبّه القرآن على ذلك كثيرا. هذا أولاً، وأما ثانياً، فإنّ القرآن يهيّئ الأجواء للاهتمام بالوقت، فلا يجعل الإنسان في غفلة دون أن يشعر به، ولأنّه يجعله أمام حقائق كبرى، ويضعه أمام حقيقة الأجل المحتوم، أجل الإنسان أو أجل يوم القيامة للحساب والعقاب، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: **﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾**[١٥٨: الأنعام] فهناك شيء ينتظره الإنسان، وهناك شيء هو نهاية المطاف، فكيف سيستقبل الإنسان هذه النهاية؟ إنّ القرآن يحثّ على ترقب العاقبة بعمل صالح وقلب سليم. وقد وردت الإشارة إلى هذه العاقبة في العديد من آيات التنزيل، خاصّة لأولئك الذين لا يبالون بالعاقبة ولا يخطرونها ببالهم، كما في قوله تعالى: **﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾** [١٢١-١٢٢: هود]، فهناك فترة انتظار لا تطول، وهناك فترة خالدة بعد الانتظار تطول وتطول.

لقد تبيّن من خلال نصوص الوحي قيمة الوقت وأثره في حياة المسلم، وتحدّدت هذه القيمة من حيث مسؤولية الإنسان عنه، ومن حيث تنظيمه وحسن توظيفه، ومن حيث أثره في نهضة الأمة، ومن حيث التحذير من إضاعة الوقت، وهذه مطالب هذا المبحث.

المطلب الأول: مسؤولية الإنسان عن الوقت:

نجد في نصوص الوحي اهتماما كبيرا بالوقت من حيث اتصاله بحياة الفرد والأمّة؛ لأنّ المقصود الحقيقي من الوقوف على أهميته وقيمته هو ما يجنيه الإنسان فيه من مكاسب ومنافع لنفسه أو للناس من حوله، أو يكون الوقت مزرعة لجني المفاسد والشرور، وممارسة الفواحش والآثام؛ ولذلك يحاسب الإنسان على كلّ عمل، وإن بلغ مثقال ذرّة ينجز في ثانية من الوقت، لقوله تعالى: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**[٧-٨: الزلزلة]، فمن هذه المسؤولية تظهر أهمية الوقت وخطورة شأنه وقيمته في حياة الإنسان.

ويتعين على هذا، الاهتمام بإعداد الإنسان قبل البلوغ، وتأهيله لدخوله عالم المسؤولية عن الوقت، وتوجيهه ليستثمره في بناء نفسه وبناء مجتمعه وبناء أمّته وبناء الكون من حوله. وتتقرر هذه المسؤولية بكل وضوح في مثل قوله ﷺ: "أعذر الله إلى امرئ أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة"[١٩]، "يعني أنّه سبحانه سلب عذر ذلك الإنسان، فلم يبقِ له عذرا يعتذر به، كأن يقول: لو مدّ لي في الأجل لفعلت ما أمرت به. وسنّ الستين هو سنّ الإنابة والرجوع وترقّب المنية ومظنة انقضاء الأجل، فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار ولزوم الطاعة، والإقبال على الآخرة بكليّته"[٢٠]. وكأنّ العمر لا يقيّم إلا على أساس ما ينجز فيه من عمل صالح.

وإذا كان الوقت هبة من الله تعالى ونعمة، فلا يصح أن يشتمه وذلك بسبّ الدهر؛ "لأنّ الله تعالى هو واضع سننه ومجريها"[٢١]. والإنسان هو صاحب التأثير والإنجاز فيه، فهو مسؤول بين يدي الله تعالى عنه، يقول ﷺ: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه..." الحديث[٢٢]. والعمر هو تلك الفترة الممتدّة في حياة الإنسان التي يقضيها في قاعة امتحان حقيقي في الحياة الدنيا في ضوء ما يتوجّه إليه من أسئلة الوحي الهدائية.

إنّ نصوص الوحي تكوّن لدى الإنسان نظرة ثاقبة شاملة إلى أهمية الوقت وقيمته، وتضع عشرات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من النصوص التي تذكر بالموت، وأنّ الموت قريب، يراه الإنسان حقيقة ماثلة أمام عينيه، لا يقوى على إنكارها وتناسيها، وهو يرى أرضا تبلع وتغيّب كلّ يوم آلافاً من الناس في بطنها، وتذكّره بأنّ الحياة الدنيا فانية، وأنّ الساعة آتية، وأنّ لكل أمّة أجلا، ولكل أجل كتابا...كلّ هذه المعاني لا تتيح للإنسان ولا تأذن له بالغفلة واللهو واللعب وطول الأمل، ولا أن يكون في الحياة عابثاً، يقول سبحانه: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾**[١١٥: المؤمنون]. ومن شأن هذا أن يدفع الإنسان إلى إدراك قيمة الحياة التي يحياها، والوقت الذي يعيشه، فالمحافظة على الوقت جزء من عقيدة المسلم وفكره وسلوكه وثقافته.

وبناء على ذلك، فقد عُدّ الانتحار اعتداء صارخاً وجريمة منكرة على الوقت، على الرغم من أنّ القاتل لم يقتل سوى عمره ووقته، وذلك لأنّ الوقت ليس ملكا له، وإنّما هو مستخلف فيه، مستأمن عليه[٢٣]. كما هو مستخلف في المال الذي يملكه، وفي الحديث: "من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً. ومن تحسّى سمّا فقتل نفسه فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلدا فيها أبداً. ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها بطنه في نار جهنم خالداً مخلدا فيها أبدا"[٢٤]. ومعنى ذلك أنّه يبعث على الصورة التي أساء فيها إلى نفسه، تنفيرا من هذا الفعل وتقبيحا له، فقتل النفس قتل للوقت، وهو قتل للعمل والإنتاج، وقتل لفعل الخير والمعروف والطاعة.

المطلب الثاني: تنظيم الوقت وحسن توظيفه:

إذا ما قلنا إنّ الوقت هو الفترة الممتدّة من اتصال روح الإنسان بجسده منذ ولادته وحتى تفارق روحه جسده، فإنّه من الصعب الحديث عن الوقت منفصلاً عن الإنسان. وعليه، فالمقصود بتنظيم الوقت وتوظيفه صرفه لبناء النفس وبناء الحياة والكون حسب درجة وعي الإنسان وقدرته، وبقطع النظر عن موقعه. وربط عملية البناء بدرجة وعي الإنسان وقدرته لأجل التركيز على فترة ما قبل البلوغ حتى لا تضيع تلك الفترة سدى، يؤيّد ذلك قوله ﷺ: "مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لعشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع... الحديث"[٢٥]. وفي ضوء هذا المفهوم، تتحقّق عملية تأهيل شامل للإنسان تنعكس آثاره على عملية بناء الحياة والكون، فيتوجّه إلى العمل بحسب ما يحقّق المصلحة ويدرأ المفسدة، والمصلحة العامّة مقدّمة على المصلحة الخاصّة، وحقوق الأمّة مقدّمة على حقوق الأفراد، وحفظ الدّين مقدّم على حفظ النفس، وحفظ العقل مقدّم على حفظ المال، فصرّف الأعمال إلى ما تستحقّ حسب معطيات الواقع وتحدّياته هو المقصود الأول من عملية تنظيم الوقت وتوظيفه.

وتنطلق عملية تنظيم الوقت في إطار صرف الإنسان كلّ عمره لله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[١٦٢: الأنعام]. وهنا يقع التفاوت في تنظيم الوقت من حيث الأهمية، مع ضرورة توجيه الوقت كلّه لطاعة الله ربّ العالمين، "إنّ الذي يوطّن نفسه على أن تكون حياته لله، ومماته لله، يتحرّى الخير والصلاح والإصلاح في كلّ عمل من أعماله، ويطلب الكمال في ذلك لنفسه؛ ليكون قدوة في الحقّ والخير في الدنيا، وأهلا لرضوان ربّه في الآخرة"[٢٦]. فإذا كان الإنسان قد جعل وقته في "الصلاة والنسك" وهما يمثلان العبادة الخالصة، فإنّ المحيا بصفة عامّة يمثل كلّ أنشطة الإنسان على وجه الأرض، فلا فصل بين صلاة ونشاط، أو بين نسك وعمل من حيث كون الكلّ عبادة يُبتغى بها مرضاة الله تعالى، يصدّق ذلك ما ورد في الحديث قوله ﷺ: "... كلّ ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنّهن من الحقّ"[٢٧]. فكل عمل يحقّق مقصدا شرعيا لا يعدّ من اللهو الباطل، كما لا يعدّ هدرا للوقت وإهمالا له. وليس ضروريا أن يترتب على توظيف الوقت مكاسب مادية فحسب، بل إنّ المكاسب المعنوية قد تفوق في أثرها وقيمتها كلّ المكاسب المادية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن هنا نجد أنّ صرف الوقت كلّه للصلاة والتنسك والعبادة فيه قتل للإنسان وهدم للحضارة، وخروج عن شرعة الله وما بيّنه لنا من منهاج، وهي رهبانية ما أنزل الله بها من سلطان، ومن هنا نعلم أنّ صرف الوقت لتحقيق متطلبات العبد الروحية والمادية ضرورة من ضرورات إنشاء الحضارة القويّة لأنّها تمثل العبادة الحقّ، والحفاظ على تلك المتطلبات شرط لازم لبقاء الحضارة واستمرارها، أمّا الممات المؤذن بحصاد ثمرة ذلك النشاط الإنساني كلّه فلا يكون إلا في سبيل الله تعالى، ولأجل لقاء الله تعالى؛ فإنّ من نذر أن يكون مماته لله إعلاء لكلمته وانتصارا لدينه، وإيثارا لما عنده يكون قد وظّف وقته كاملا فيما يصلح دنياه وآخرته.

ومن جهة أخرى، فإنّ توثيق صلة الإنسان بربّه في صلاته وزكاته وصومه وحجّه منضبطة بأوقات معينة لا يصحّ تجاوزها، فالصلاة تحدّد بأوقات معينة، وأداؤها خارج هذه الأوقات غير جائز. كذلك شهر الصيام لا يكون إلا في رمضان. وأوجب الله حقّا في الزكاة إذا حال الحول. والحج لا يكون إلا في وقت محدّد من السنة. هذا التنظيم للوقت يفرض على المسلم إدراك ما للالتزام بالوقت من أهمية، فصيام شهر كامل لا يجزئ عن صوم يوم من رمضان لمن أفطر متعمداً. وهكذا سائر العبادات من صلاة وحجّ، فالمحافظة على الوقت فيها مقصود لذاته، ومن حكمه أن يتعلم الإنسان كيف يضبط وقته، وكيف يحافظ عليه، وكيف ينفقه من أجل تسطير الذكرى في عالم الزوال!

ويتحدّد مفهوم هذا التنظيم للوقت بأن يأتي المسلم بالعمل المناسب في الوقت المناسب والمكان المناسب، فلكل وقت عمله، ولكل عمل وقته. وبهذا يكتسب المنتمي لهداية الوحي خبرة في إدارة الوقت وتنظيمه، بل يكون حذرا كلّ الحذر أن تعتريه الغفلة فيفوّت أعمالا، أو يغفل عن أعمال. وكما أنّ الصائم يترقب أذان الإفطار لحظة بلحظة وينتبه لوقت الأذان، ووقت السحور ثانية بثانية، فالأحرى به أن ينتبه لوقت الأجل والموت، فلا تقترب منه الغفلة بحال، ولا يذهب منه الوقت في غير طاعة لله أو عبودية له.

المطلب الثالث: أثر الوقت في نهضة الأمة:

يظهر أنّ الوقت عامل مهمّ في نهضة الأمم وتقدّمها، فما قيمة الوقت -مثلا- في بلد من دول العالم النامي، وفي بلد آخر من دول العالم المتقدّم! وما قيمة يوم عمل من حيث كم الإنتاج بين بلد إسلامي، وبلد غربي! يعيد المفكر المسلم مالك بن نبي نهضة ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية إلى إدراكها لقيمة الوقت وحسن توظيفها له، فاستطاعت إعادة بناء نفسها اجتماعياً واقتصادياً(٢٨)، فأنتجت بحسن استثمار الوقت وتوظيفه نهضة عمرانية واقتصادية مذهلة سابقت بها كلّ الأمم.

لقد كانت دول عربية كبرى بعد الحرب العالمية الثانية أفضل حالا من اليابان ألف مرّة، وأفضل من كلّ ما يعرف اليوم بالنمور الآسيوية، ومع ذلك استطاعت اليابان وغيرها أن تنهض من لا شيء، وأن تُحدث نهضة علمية وتقنية واقتصادية تصدّرت بها الدول العظمى. لقد أدركت هذه الدّول ما للوقت من قيمة وأثر في بناء الأمم؛ فأصبحت تنافس على الصدارة في التقدّم العلمي والاقتصادي والتقني، على الرغم من افتقار هذه الدّول إلى مصدرية الوحي في الهداية والتوجيه، أما نحن المسلمين، فلم نحقّق شيئا ذا بال من بناء دعائم الحضارة المعاصرة؛ لأنّ الوقت بالنسبة لنا أرخص بضاعة كاسدة لا تجد لها طالبا ولا شاريا! وتتحمل مناهج التعليم قسطا من المسؤولية عن التقصير في التنبيه على قيمة الوقت والتنويه بشأنه لدى الأجيال الناشئة.

أقول: يعدّ الوقت في نصوص الوحي عاملاً مهماً في إحداث الرقيّ والنهضة، فهو الإطار الذي تتم فيه عملية النهضة بالنسبة إلى الفرد والأمّة، ولا تقتصر هذه النهضة على وفرة الإنتاج وتحقيق الرقيّ المادي، بل تشمل كذلك بناء الفرد والأمّة روحياً ومعنوياً، وعلى قدر إدراك هذا المعنى تسمو الأمّة ويسمو الفرد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنّ نصوص الوحي تحثّ على اتّخاذ موقف المبادرة من كلّ عمل صالح أو معروف أو إحسان، فالنهضة لا تقوم على تلكؤ وتسويف، أو مماطلة وتباطؤ، يقول سبحانه: **﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾**[١٣٣: آل عمران]، ومعنى هذا: "سارعوا إلى ما يوجب مغفرة ربّكم، ولا شكّ أنّ الموجب للمغفرة ليس إلا فعل المأمورات وترك المنهيات"[٢٩]. إنّ إتيان العبد هذه الأعمال والطاعات وهو صحيح قويّ نشيط اغتنام حقيقي واستثمار نافع لما يملك من وقت. والإسراع إلى العمل الصالح فيه تضييق للخناق على كل نشاط فاسد في الأرض.

ويورد في سياق آخر كلمة أخرى تدلّ على المبادرة واغتنام الفرص، هي كلمة "سابقوا" في قوله تعالى: **﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** [٢١: الحديد] والفرق بين سارعوا وسابقوا أنّ هنا بيّن كيفية المسارعة، بمعنى: سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم[٣٠]. وبمصطلحي المسابقة والمسارعة يغرس الوحي عنصر المبادرة في الفرد ويدفعه إلى نبذ كلّ الأعذار التي تحول بينه وبين تلك الأعمال. وهذا يعني -من جهة أخرى- أنّ اختلاق الذرائع لتعليل تخلّف الأمّة أو تقصيرها عن اللحاق بركب الحضارة والمدنية أمر مرفوض؛ بسبب موت روح المبادرة في نفوس أبنائها. كذلك، فإنّ خلق الذرائع لتسويغ أيّ تقصير عن القيام بأيّ عمل غير مقبول من الفرد.

وفي سياق الحديث عن اليهود الذين حاولوا التشكيك في قبلة المسلمين والصدّ عنها، والذين جادلوا بالباطل، وحرّفوا كتابهم، وسارعوا في الكفر صدودا وإعراضا عن هذا الدّين، وجدنا القرآن الكريم يصرف المسلمين عن الاستماع إليهم، وإضاعة الوقت في جدالهم، في قوله تعالى: **﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾**[١٤٨: البقرة]، وفي قوله: **﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾** [٤٨: المائدة] فحثّ على السبق إلى فعل الخيرات. إنّ إضاعة الوقت في الجدال كإضاعته في قيل وقال، وكلاهما مفسدة ومشغلة عن العمل الصالح.

وفي سياق آخر يقول سبحانه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾** [٥٧-٦١: المؤمنون] لقد كان هؤلاء مثالاً في البذل والعطاء في إصلاح شؤون الحياة، وفي المسارعة في الخيرات مما ينفع الإنسان والإنسانية، وهذا هو ما تتوقف عليه نهضة الأمّة حضارياً، وهو شرط ضروري لخروجها من رقدتها وسباتها. ومن خلال هذه الآيات تظهر قيمة العمل المادي والمعنوي، العمل الذي يعدّ إصلاح العلاقة مع الله تعالى أساساً ضرورياً لإصلاح الحياة الإنسانية وعمارتها، فيتضافر عمل القلب والروح مع عمل الجسد والجوارح في خدمة النهضة الإسلامية والحضارة الإسلامية. "هذا الفريق الذي وصف بهذه الصفات كلّها من الحذر والخشية من الله في تصرفاته، ومن الإيمان بكتابه، ومن عبادته وحده، ومن الرجاء في حسن لقاء الله إن أعطى غيره، هذا الفريق لا يتباطأ في طاعة الله، وفي أداء العمل الصالح، ويكون في المقدّمة في إنجاز هذا وذاك، وهو بصفاته مباين لصفات الماديين الذين يحرصون على الجاه والقوّة، ويعتمدون على عصبية المؤيدين وقوّة المال في تطويع الحياة لهم، غير عابئين بما يأتي به هذا التطويع من أضرار لغيرهم، وإذا ذكروا بالطريق المستقيم في الترابط والمعاملة سخروا منه وممن يدعو إليه"[٣١].

لقد كان الأنبياء -وهم القدوة والأسوة- على مثل هذا الخلق من المبادرة إلى الأعمال الصالحة، يقول سبحانه: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾**[٩٠: الأنبياء] هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البدار إلى العمل في حياة الأمّة المؤمنة القائم على حسن استثمار الوقت ينعكس على حياتها بالخير والاستقرار والتقدّم، ويضع قدمها على طريق الإصلاح والنهضة، يذكر مالك بن نبي رحمه الله: "أنّنا في حاجة ملحّة إلى توقيت دقيق، وخطوات واسعة؛ لكيّ نعوّض تأخرنا، ووقتنا الزاحف صوب التاريخ، يجب أن لا يضيع هباء، كما يهرب الماء من ساقية خربة، وإذا حاول كلّ منّا تخصيص جزء من يومه في تنفيذ مهمّة منتظمة وفعّالة فسوف يكون لديه في نهاية العام حصيلة هائلة من ساعات العمل، لمصلحة الحياة الإسلامية في جميع أشكالها العقلية والخلقية والفنية والاقتصادية والمنزلية. وسيثبت هذا عمليا فكرة الزمن في العقل الإسلامي، أي: في أسلوب الحياة في المجتمع وفي سلوك أفراده، فإذا استغل الوقت هكذا فلم يضع سدى، ولم يمرّ كسولا في حقلنا، فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي وهذه هي الحضارة[٣٢].

إنّه من المفيد أن نذكر أنّ كلمة العمل وما يشتق منها قد وردت في القرآن ثلاثمائة وستين مرّة وهو مدار السنة القمرية أو أكثر، ومن شأن هذا أن يوحي بأنّ سَنة الأمّة كلّها عمل وجدّ واجتهاد، لا تقاعد فيها عن العمل ولا تقاعس ولا كسل، هذا وصف الأمّة التي تفكر بالنهضة والرقيّ والتقدّم، والتي تريد أن تشيّد الحضارة على دعائم قويّة من العمل الصالح.

وفي السنّة النبوية تأكيد أهمية عنصر المبادرة في حياة الفرد والجماعة، ففي قوله ﷺ: "اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك"[٣٣]. وهو يعني أيضا: أن لا يسوّف الإنسان ويؤجل ما يمكن إنجازه اليوم إلى الغد، ويستثمر الوقت في الحال الذي هو فيه قبل أن يتبدّل هذا الحال فيفقد القدرة على استثمار الوقت وتفعيله بالعمل الصالح، فيكون الوقت سيفا مصلتا عليه، وقد كان سيفا بيده ينجز به ما يريد، فالحياة والصحّة والفراغ والشباب والغنى أوضاع ترتكز على الوقت وتمرّ بكل إنسان فتفويتها دون أعمال خسران مبين، وهلاك محقّق للفرد والأمّة.

كذلك، في قوله ﷺ: "بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفنّدا، أو موتا مجهزا، أو الدّجال فشرّ غائب ينتظر، أو الساعة فالسّاعة أدهى وأمرّ[٣٤]؟"، ومقصود هذا "الحثّ على البداءة بالأعمال قبل حلول الآجال واغتنام الأوقات قبل هجوم الآفات"[٣٥]. فأفعال: سارعوا، سابقوا، بادروا، اغتنموا... تجعل الإنسان في موقف التحفّز والتأهّب واليقظة لاقتناص ما يمكن أن يكون فرصة حقيقية لإنجاز عمل صالح، وتسطير الذكرى في عالم الفناء.

وتظهر قيمة المسابقة والتفطن لاستثمار الفرص حين تحدّث الرسول ﷺ عن السبعين ألفا الذين يدخلون الجنّة بلا حساب، فقام أحد الصحابة وهو عكّاشة بن محصن، فقال يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم، ثمّ قام آخر فطلب أن يكون منهم، فقال له: سبقك بها عكاشة[٣٦].

لقد رسم الوحي صورة بائسة لمن لم يحسن استثمار ما وهب له من عُمُر في حياته الدنيا، قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[٩٩-١٠٠: المؤمنون].

ومن ناحية أخرى، لا نجد في تصوّر المسلم وقتا هامشيا غير معدود عليه أو غير محسوب من حياته، يظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ**﴾ [٧: الانشراح]، قال الآلوسي: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ**﴾ أي: من عبادة كتبليغ الوحي"فانصب" فاتعب في عبادة أخرى شكراً لما عددنا عليك من النعم السالفة، ووعدناك من الآلاء الآنفة، كأنّه ﷻ لما عدّد عليه ما عدد، ووعده ﷺ بما وعد، بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة وإن لا يخلي وقتاً من أوقاته منها فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى"[٣٧] وهو سرّ تقديم قوله "فإذا فرغت"

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على قوله: "فانصب"، وذلك للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره لتتعاقب الأعمال، وهذه الآية من جوامع الكلم القرآنية لما احتوت عليه من كثرة المعاني"[38]. وهذا يعني أنّ قاموس الوحي لا يتضمن ولو إشارة واحدة إلى ما يُعرف بـــ"وقت الفراغ"، وهذا يعطينا قاعدة إسلامية هامّة، وهي أنّ الإنسان لا يمكن أن يعيش وقتا بدون تكليف "سدى"، فهو في كلّ أحواله مأمور أو منهي، على أنّ ما يقوم به المسلم من نشاط ترويحي هو عمل مقدّس. وأنّ وقت الترويح ليس منفصلا عن الحركة الحضارية العامة للأمّة، ومن ثمّ فإنّ طبيعة النشاط الترويحي في المجتمع لا بدّ أن تنبثق وتتناغم مع نسيج المشروع الحضاري الإسلامي الذي تعلّق عليه الأمّة آمال النهضة[39].

ومن ثمّ فإنّ الفراغ يعني -إسلامياً- سلامة القلب والنفس والفكر من كلّ ما يلهي عن الخير والعبادة، وفي هذا المعنى جاء قوله ﷺ: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة الفراغ"[40]، فالصحّة هي سلامة البدن، والفراغ هو سلامة النفس والفكر[41]. "إنّ الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأنّ الفراغ يعقبه الشغل، والصحّة يعقبها السقم"[42]. قال الطيبي: "ضرب النبي ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذي له رأس مال، فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال، فطريقة ذلك أن يتحرّى فيمن يعامله، ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن، فالصحّة والفراغ رأس المال، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان ومجاهدة النفس وعدوّ الدّين، ليربح خيري الدنيا والآخرة، وقريب منه قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[10: الصف]، وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان لئلا يضيع رأس ماله مع الربح"[43]. وهذه الحقيقة تعدّ أساسا مهمّا في تصوّر الإنسان المسلم في الحيـــاة، وهي قاعدة انطلاق تجعل الصلاة والنسك والمحيا والممات في طاعة الله وابتغاء مرضاته.

ومحصلة هذه الأعمال -التي يبادر إليها هؤلاء المتسابقون المتنافسون على صورة من السباق- توثيق الصلة بأسباب الرقيّ والنهضة في مختلف الصعد ماديا ومعنويا.

المطلب الرابع: التحذير من إضاعة الوقت:

يستند هذا التحذير ويقوم على ظاهرة قرآنية فريدة، فالقرآن في موضوعاته وأسلوبه وبلاغته، قد احترم عقل الإنسان واحترم وقته كذلك، فنزل من القرآن ما كان فيه العبرة والفائدة والمقصد والهدف، فلم يشغل وقت الإنسان بتفاصيل دقيقة لا طائل تحتها، وإنّما أوقفه على الحقيقة من أقصر طريق وأكثره اختصارا، وأبرز ما يدلل على ذلك القصص القرآني الذي قصّت فيه أخبار منتقاة بعناية إلهية فذكرت على سبيل القطع واليقين، واقتصرت على ما يمدّ الإنسان بالفقه الاجتماعي اللازم للرقيّ والنهضة، فاحترم عقله ولم يهدر وقته.

وفي سياق التحذير من إضاعة الوقت في اللهو واللعب، يقول تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿**يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾[39: غافر]، وقوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾[20: الحديد].

لقد ورد في هدي النبي ﷺ تحذير من هدر الوقت أو إشغاله فيما لا يعود بالنفع على صاحبه أو على الآخرين، فقد "كان رسول الله ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال..." الحديث[44] لما يترتب على ذلك من هدر لعمر الإنسان وتعطيل للوقت، ولما يمكن أن ينجز في هذا الوقت من أعمال، ومن ثم تعطيل حركة الأمّة وفاعليتها. وإذا كان هدر الوقت ظاهرة عامّة عند أفراد الأمّة فإنّها تشكل تهديدا وكارثة للأمّة في مجالات الحياة كلها.

وحين يأتي رجل يسأل رسول الله ﷺ عن الساعة قائلا: متى الساعة؟ فتكون إجابة الرسول ﷺ لذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السائل: وماذا أعددت لها؟[٤٥] إنّ الإجابة توجّهت إلى ما يمكن أن يستثمره الإنسان في حياته تمهيدا لاستقبال الساعة والإعداد لها، ولا عليه إن قامت بعد قرن أو مئات القرون؛ لأنّه لا يمكن أن يشهد انقضاء هذه القرون، فيصبح السؤال عنها من قبيل العبث أو الترف الفكري، وإجابة الرسول ﷺ هذه تعدّ غاية في الفطنة والذكاء: ماذا أعددت لها؟ إنّ قيام الساعة أمر مؤكد، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ**﴾[٧: الحج]، لكن غير المؤكد هو استعداد الإنسان لها؛ فوظيفة الإنسان إزاء مجيء الساعة هي الإعداد والاستعداد، والاشتغال بغير ذلك يعدّ مضيعة للوقت ومهلكة للإنسان، تماما حين يبكي الناس على فراق شهر رمضان كلّ عام، فالأولى أن يبكي كلّ إنسان على نفسه أن لا يدرك شهرا آخر من رمضان، فرمضان سيعود حتما، أما الخبر غير المؤكد فهو بقاء الإنسان حيّا حتى يشهد رمضان المقبل!

لقد كان ابن عقيل يقول: إنّي لا يحلّ لي أن أضيّع ساعة من عمري، حتى إذا تعطّل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإنّي لأجد من حرصي على العلم وأنا في عَشر الثمانين أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين"[٤٦] فكانت حياته مثمرة بالعطاء العلمي، والإنتاج المعرفي المفيد، فقد ألف كتابا سمّاه"الفنون" قال فيه الحافظ الذهبي: لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب"[٤٧].

ولا شك أنّ الإنسان حريص على وقته، ولكنه على ماله أحرص! فقد يتألم لفقد دراهم معدودة، لكنه لا يتألم حين يفقد ساعات معدودة من عمره بلا منفعة. وقد يبخل بأداء دينار عن مستحقّ، لكنه لا يبخل حين يهدر ساعات من وقته في "قيل وقال" مع أنّ المال يمكن تعويضه إذا ضاع أو فقد، أما الوقت فلا يمكن تعويضه بحال من الأحوال! فمن الأولى أن يعطي لكل شيء ما يستحقّه من الاهتمام، والوقت هو أنفس ما ينبغي أن يتوجّه إليه الاهتمام.

المبحث الثاني
طرق استثمار الوقت

لو ترك الإنسان إلى هواه لينفق وقته حسب ما يشتهي لضلّ وهلك؛ بسبب القيم الماديّة التي تحكم ذلك الهوى، فما زالت مقولة: الوقت هو المال (Time is Money) مهيمنة على سلوك أغلب أهل الأرض، وهي مقولة فلسفية من شأنها أن تضيّع حقوق الله والعباد، وحقوق النفس والروح، وحقوق الأرحام والقربى، وحقوق الديار والأوطان، وحقوق البيئة والطبيعة...؛ لأنّ إنفاق الوقت -على هذا المعنى- له مسار واحد، وهدف واحد هو جني المال، ثم اللهو بهذا المال، وليس ثمة تفكير أبعد من ذلك أو أعمق. ولأجل أن لا يكون الإنسان مسرفا أو مبذّرا في إنفاق الوقت الذي يعدّ أعظم جناية من تبذير المال، وإذا كان القرآن قد وصف مبذّري المال بأنّهم إخوان الشياطين، فماذا سيكون وصف مبذّري الوقت إذا علمنا "أنّ الوقت هو الحياة"[٤٨]. أقول: لأجل أن لا يضيع الوقت سُدى، أو يمرّ رخيصا بلا قيمة ولا ثمن، جاءت نصوص الوحي تحدّد الطرق التي يحلّ إنفاق الوقت فيها واستثماره لما يحقّق مصالح العباد، وهذه الطرق متداخلة متشابكة مترابطة لا يمكن فصل بعضها عن بعض، فكل طريق يغذّي الطريق الآخر، ويقوّيه، وسنجعلها في مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: إعمار الصلة بالله تعالى وذلك بتحقيق العبودية الخالصة له سبحانه ونصرة دينه، وينطلق توظيف الوقت في عناية العبد بتحقيق العبودية لله تعالى من مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[٥٦: الذاريات]، وهو يقود إلى الطريق الثاني ويتداخل معه، فتحقيق العبودية لله فيه ترقية للنفس وتزكية، وفيه تحلية لها وتخلية.

يبدو في ضوء نصوص القرآن أنّ إصلاح النفس من الداخل هو الأساس الأول في عملية البناء الحقيقي للنفس الإنسانية، ولن يتحقّق هذا إلا بإصلاح العلاقة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مع الله سبحانه وتحقيق العبودية له، فإذا تمّ إنجاز هذا الهدف فإنّ عملية الإصلاح سيكتب لها النجاح، ومن أجل ذلك لم يقتصر القرآن على ترسيخ عقائد الإيمان وشرائعه في نفس العبد، بل دعا إلى أعمال أخرى من شأنها أن تغذّي الإيمان وتقوّيه، وتحقّق دوام المراقبة لله تعالى، بالذكر والتسبيح والدعاء والقيام... وغيرها. لقد اختار القرآن للعبد أوقاتا يوظفها في أعمال نافعة طاعة لله وقربة له، وقد شملت هذه الأوقات كلّ أجزاء النهار والليل، وأرشد في بقية الأوقات إلى سنّة الله تعالى العامّة في تصريف هذه الأوقات؛ لتستقيم حياة الخلق.

أقول: إنّ من نماذج توظيف القرآن للوقت أنموذجا يعدّ ظاهرة فريدة من ظواهر القرآن الكريم في إعمار الصلة بالله وإصلاح العلاقة معه سبحانه، فقد بيّنـت نصوص الوحي أوقات ينبغي للإنسان أن يستثمرها بأفضل الأعمال وأعمقها وأنفعها عند الله سبحانه، فالذّكر والتسبيح والاستغفار والسجود والدعاء وتلاوة آيات الله والصلاة أعمال قلبية في حقيقتها، جليلة في قدرها، عظيمة في أثرها، تخيّر لها أوقات شملت معظم أجزاء النهار والليل، ولم تترك فرصة للإنسان أن يفتر أو يغفل أو يلهو أو ينام، وهي: **البكرة والإبكار** وهي أوائل النهار[٤٩] **والأصيل والآصال** وهي أوقات ما بعد العصر إلى المغرب[٥٠]، **والغداة والغدوّ** وهي أوائل النهار أيضا، وقوبل الغدوّ بالآصال وقوبل الغـداة بالعشي[٥١]، **والعشيّ، والمساء، والصباح، والإشراق، وقبل طلوع الشمس، وقبل الغروب، وآناء الليل، وأطراف النهار، أو طرفي النهار، وزلف من الليل**، وهي الساعات القريبة بعضها من بعض[٥٢]، **ووقت دلوك الشمس** هو زوالها عن بطن السماء وكان لها في الأرض فيء[٥٣] **وغسق الليل، والفجر**. ويكاد يكون هذا الشمول في تناول وقت الليل والنهار مستغرقا كلّ ساعة من ساعات الليل والنهار، بل استغرق كلّ لحظة من لحظات النهار كما في يوم عرفة، وكلّ ثانية من ثواني الليل كما في ليلة القدر. وتفضيل بعض الأوقات من الأيام والليالي ليزداد الإنسان فيها بالعمل الصالح، فليلة القدر كانت في فضلها خيرا من ألف شهر، فاستثمار ليلها بالقيام والتسبيح بحمد الله مما يورث فضلا كبيرا. وكذلك يوم عرفة هو أفضل أيام السنة. ورمضان فيه إصلاح الباطن وذو الحجة فيه إصلاح الظاهر فسبحان الله الحكم العدل الذي هيّأ كلّ فرصة للإنسان أن يستثمر فيها وقته في توثيق صلته بالله!

ومن الآيات التي تشير إلى توظيف الوقت في تحقيق العبودية لله -مثلا- ما ورد في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾[٤١-٤٢: الأحزاب] وهذه من الأوقات المهمّة التي ينبغي إعمارها بالتسبيح لله وذكره سبحانه لما فيها من استقبال النهار "البكرة" واستقبال الليل "الأصيل" وهما آيتان من آيات الله سبحانه، وفي تقليب هذه الأوقات آية بيّنة، ونعمة عظيمة تستوجب ذكر الله وتسبيحه.

ومنها قوله تعالى مخاطبا رسوله أصالة وكلّ مؤمن يصلح للخطاب: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**﴾[٥٥: غافر]. بل إن هذه الأعمال تكاد تهيمن على وقت الإنسان كلّه وتستحوذ عليه، في **المساء والصباح والعشيّ والظهيرة**، كما في قوله: ﴿**فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِيـنَ تُظْهِرُونَ**﴾[١٧-١٨: الروم]. وهي أوقات تشمل جميع أجزاء النهار والليل، واستثمارها بتسبيح الله وحمده يرتّب اهتمامات الإنسان في حرصه الشديد على رأس ماله وهو وقته من أجل إقامة صلة مستمرة لا تنقطع بالله سبحانه.

ومنها شغل وقت العشيّ والإشراق بالتسبيح، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ**﴾[١٨: ص]، فتسبيح الجبال على صلابتهـا وقساوتها فيه موعظة للإنسان وعبرة له.

ويستغرق التسبيح والذكر معظم أجزاء النهار والليل،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾[١٣٠: طه].

ومنها قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [٣٦: النور].

ومنها قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾[٣٩-٤٠: ق].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[٢٥-٢٦: الإنسان] ويخصّ السجود بالذكر لقرب العبد فيه من الله تعالى، وهو الوقت الأنسب للقيام ومناجاة الله سبحانه.

ومنها توظيف وقت الغداة والعشيّ لشغلهما بالدعاء كما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[٥٢: الأنعام].

ومنها توظيفه آناء الليل للتضرّع والدعاء كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٩: الزمر].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[١١٤: هود]. وقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٧٨: الإسراء].

كذلك، فإنّ استثمار الوقت في ذكر لله تعالى يعدّ منجزا ضروريا لمستقبل الإنسان في الحياة الآخرة، ولنتصوّر كم يحتاج غرس نخلة ورعايتها إلى أن تصبح شجرة ضخمة مثمرة، وكيف يمكن إنجاز هذا العمل في ثانية من الوقت، فمما روي من روائع الهدي النبوي قوله ﷺ: من قال سبحان الله العظيم، غرست له نخلة في الجنّة"[٥٤]. إنّ هناك أعمالا يتجاوز بها الإنسان حاجز الزمان، كقراءة القرآن، فقد انعقد إجماع المسلمين على أنّ القرآن من ناحية الطول يستغرق الزمن كله، بل يتعدّى الزمن، يقول الرسول ﷺ: "يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرأ بها"[٥٥]. فكأنّ القرآن امتداد للزمن تجاوز هذه الحياة إلى أنّه سيقرأ في الجنّة، وامتداده العرضي يشمل الأجناس كلها[٥٦].

هذه الأعمال خفيفة في أدائها، لكنها عميقة وكبيرة في آثارها وانعكاساتها على بناء الإنسان ظاهرا وباطنا، إنّ الذكر والتسبيح كانا من أهمّ الأعمال التي توزعت على معظم أجزاء الليل والنهار، وسبب ذلك –والله أعلم- أنّهما يشكلان الأساس الضامن والأرضية الصلبة التي تنطلق منهما كلّ الأعمال بإتقان وإخلاص، فالقلب الذاكر بل الإنسان الذاكر الذي لا يفتر عن الله لحظة، هو صاحب القلب الصالح الذي يتوقع منه كلّ عمل مخلص صالح. وذكر الله هو الذي يبعث الطمأنينة في النفس، وفي جوّ الطمأنينة هذا يمكن للإنسان أن يفكر بروية وعمق: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٢٨: الرعد] إنّ ذكر الله وتسبيحه هما الأداة الفعّالة في الرقيّ والنهضة وصنع الحضارة؛ لذلك وجدناهما يتكرران بصورة ملفتة في نصوص القرآن الكريم. وإذا توجّه هذان العملان لإصلاح الباطن فهذا يعني عدم الحاجة للتركيز على الظاهر؛ لأنّه من قبيل تحصيل الحاصل، فالشيء المؤكد أنّ من صلح باطنه، فظاهره قطعا سيكون صالحا، وليس العكس، فإنّ صلاح الظاهر لا يقتضي صلاح الباطن، وهذا مزلق خطير وقع فيه المنافقون بفساد باطنهم.

وهذه الظاهرة اللافتة في القرآن الكريم تستدعي الوقوف عندها، فما سرّ أن يأتي الذكر والتسبيح والسجود والدعاء وكلّها أعمال قلبية تأتي مرتبطة بمعظم أوقات أجزاء الليل والنهار؟ وما قيمة هذه الأعمال في بناء الأمة وتقدّمها؟ وما من شك في أنّ القرآن يولي صلاح الباطن في الإنسان أهمية كبيرة؛ لأنّ من صلاح الباطن تنطلق عملية البناء الحقيقي للإنسان والأمّة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحضارة على أسس متينة وقواعد راسخة. وهذا الذكر والتسبيح والدعاء يعلّم الإنسان قيمة الوقت، ويرشد إلى كيفية استثماره وتوظيفه، فيضمن للإنسان عدم الغفلة، ومن ثمّ عدم تضييع الوقت وهدره في غير ما فائدة ولا منفعة، فيحفظ رأس ماله ويصونه عن العبث واللهو والضلال.

المطلب الثاني: إعمار الصلة بالنفس وتنمية الذات والعمل على ترقّيها مادياً ومعنوياً، وينطلق توظيف الوقت في عناية العبد بنفسه من مثل قوله تعالى: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾**[٧-١٠: الشمس].

وقد هيّأ الله تعالى الكون لتنتظم به حياة الإنسان بلا مشقة ولا تعب، فجعل وقت الليل والنهار سنّة ثابتة من سننه تعالى لتنضبط فيهما حياة الإنسان، فالنوم الذي يقع ليلا تنقطع فيه الحواس عن الحركة والعمل، والليل الذي يغشى الإنسان فيلفّه ويستره فيكون كاللباس، والنهار الذي جعل لتحصيل المعاش، كل أولئك سنن إلهية تقررت في قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾**[٩-١١: النّبأ]، أي: "وقت معاش تستيقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم"(٥٧). قال ابن عاشور: وفي هذا امتنان على الناس بخلق نظام النوم فيهم لتحصل لهم راحة من أتعاب العمل الذي يَكدحُون له في نهارهم، فالله تعالى جعل النوم حاصلاً للإنسان بدون اختياره، فالنوم يلجأ الإنسان إلى قطع العمل لتحصل راحة لمجموعه العصبي الذي رُكنه في الدماغ، فبتلك الراحة يستجدّ العصب قواه التي أوهنها عمل الحواس وحركات الأعضاء وأعمالها، بحيث لو تعلقت رغبة أحد بالسهر لا بدّ له من أن يغلبه النوم وذلك لطف بالإنسان بحيث يحصل له ما به منفعة مداركه قسْراً عليه لئلا يتهاون به"(٥٨)، والانتظام بهذه السنن الإلهية فيه مظاهر قوّة متنوعة، وفيه انضباط في المحافظة على الوقت، وإليه أشارت آيات عديدة في كتاب الله تعالى(*).

ومن ثمّ نجد في أداء حقوق النفس قوّة وثباتا؛ فالإنسان ملزم بالمحافظة على وقته بما يصلح فيه شأنه، وينمّي فيه مواهبه وقدراته العقلية والفكرية والجسدية؛ فالعقل السليم في الجسم السليم، وتخصيص وقت للقراءة والمطالعة وتحصيل العلم والمعرفة، ووقت للرياضة لبناء الجسم السليم، ووقت للراحة والنوم كلّ ذلك واقع في دائرة تنظيم وقت الإنسان بما يصلح شأنه ويقيم أمره في طاعة الله سبحانه وتعالى. إنّ تنمية الإنسان لنفسه ينعكس على الأمّة فيرفع من سويتها وشأنها. ولا شكّ أنّ من استوى يوماه فهو مغبون. وفي الدّعاء يضرع المؤمن إلى ربّه أن يجعل يومه خيرا من أمسه، وغده خيرا من يومه، بل إن الإنسان ليضرع إلى الله تعالى أن لا تذهب منه طرفة عين في معصية، ففي الدعاء عنه قوله ﷺ: "اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كلّه لا إله إلا أنت"(٥٩)، فالوقت الواقع في طرفة عين لا يتجاوز ثانية، ومع ذلك يفزع الإنسان إلى الله ويضرع أن لا يكون هذا الوقت في معصية لأنّه يشعر بالأمن والطمأنينة حين تحفّه عناية الله تعالى.

وفي سياق حثّ الإنسان على الانتفاع بالوقت من أجل ترقية نفسه وتزكيتها تحدّث الوحي عن أجل الإنسان فذكّره بالموت كثيرا، وتحدّث عن آجال الأمم والمجتمعات فبيّن أنّ لكل أمّة أجلا، وتحدّث عن أجل الحياة الدنيا وزوالها، فذكّر بالساعة والقيامة واليوم الآخر. أقول: هذه الحلقات الثلاث التي يحيط بعضها ببعض، تبتدئ بالحلقة الأصغر المتمثلة في أجل الإنسان، وتنتهي إلى الحلقة الأطول المتمثلة في أجل الحياة الدنيا، وحتى يخرج الإنسان إلى الحلقة الثالثة المؤدّية إلى الحساب والجزاء بسلام لابدّ أن يكون قد أحسن صنعا في إعمار الحلقة الأولى والتي تليها، أي: إصلاح حياته بالعمل؛ لينعكس ذلك على حال الأمّة والمجتمع بالصلاح، لقد كان حديث الوحي في هذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآجال يتمّ في إطار توجيه الإنسان إلى حسن العمل وصلاحه للوصول إلى خاتمة حسنة له ولأمّته. ومن هنا ينبع أثر الاتصال والفاعلية بين أجل الإنسان وأجل الأمّة فيستمدّ كل منهما من الآخر ما يكون عونا له في الحياة وبعد الممات.

ونجد أنّ القرآن حافظ على خصوصية الإنسان فأتاح له من الأوقات التي يستقل فيها لخاصة نفسه، وأرشد الإنسان إلى ثلاثة أوقات يخلد فيها للراحة ويحظر فيها الدخول عليه، وهي: وقت قبل صلاة الفجر، ووقت الظهيرة، ووقت بعد العشاء وقد تمّ توظيف هذه الأوقات من أجل أن يجد الإنسان فيه خلوته وراحته كما في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ منكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ من قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاء ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**[٥٨: النور].

المطلب الثالث: إعمار الصلة بكل من حولنا وبكل ما حولنا والتفاعل الإيجابي معه، بوصفه لبنة في البناء الاجتماعي للأمّة، فيبتدئ بالزوجة ولا ينتهي عند حدّ معين، فمجال التفاعل مع الآخرين من أوسع الأبواب التي يمكن للإنسان أن يستثمر فيها وقته. وينطلق في عناية العبد بالآخرين تفاعلا معهم وتعاونا على الخير والإصلاح من مثل قوله تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[٢١:الروم]، وقوله تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**[٢: المائدة].

ويجعل القرآن من إنفاق المال وسيلة تكافل وتراحم بين الناس، فالإنفاق في سبيل الله لا وقت له من ليل أو نهار، كما أخبر سبحانه بقوله: **﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾**[٢٧٤: البقرة] وهي وسيلة تجعل المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا.

كذلك، فإنّ إقامة الإنسان صلة حسنة بكل ما حوله ابتداء من أقرب الناس إليه، وانتهاء بكل نشاط فاعل في المجتمع يبلغ مثقال ذرّة، واقع أيضا في نطاق تنظيم الوقت، فقد روي أنّ عبد الله بن عمرو كان صوّاماً بالنّهار قوّاما بالليل، حتى إنّه لا يأبه بعلاقة الزوجية رغبة وطمعا في العبادة، قال: دخل رسول الله حجرتي فقال: ألم أخبر أنّك تقوم الليل وتصوم النّهار؟ قال: بلى! قال: فلا تفعلن، نم وقم، وصم وأفطر، فإنّ لعينك عليك حقّا، وإنّ لجسدك عليك حقّا، وإنّ لزوجتك عليك حقّا، وإنّ لضيفك عليك حقّا، وإنّ لصديقك عليك حقّا... الحديث." [٦٠] ويفهم من الحديث أنّ توظيف الوقت من أجل بناء علاقة زوجية قويمة لتأسيس أسرة قوية متينة، والحثّ على بناء علاقات اجتماعية قويـة مع الآخرين -من أصدقاء وجيران وغيرهم- من أجل تأسيس مجتمع قويّ متماسك مترابط.. يفهم من ذلك كلّه أهمية الوقت وضرورة تنظيمه بما يحقّق هذه المقاصد. ومن هنا لم يؤثر الشرع العزلة عن الناس، لأنّ في العزلة إيثارا للنفس ومحابـاة لها، ولكنه أمر بمخالطة الناس وإصلاحهم، والعناية بشأنهم، والتعاون معهم، والصبر على أذاهم.

ويؤيّد ذلك التحديد في إنفاق الوقت تصديق رسول الله ﷺ لسلمان الفارسي حين قال لأبي الدرداء: "إنّ لربّك عليك حقّا، ولنفسك عليك حقّا، ولأهلك عليك حقّا، فأعط كلّ ذي حقّ حقّه"[٦١]. فينبغي له أن يعطي كلّ طريق ما يستحق من الوقت والاهتمام بحيث يظل التوازن بين هذه الطرق قائما، فهو المستفيد الأول من عملية تنظيم الوقت هذه. وإنّ الإجحاف بحقّ واحد منها على حساب الآخر سيؤدّي حتما إلى اختلال في حياة الإنسان وتوازنه، ومن ثمّ اختلال في بنيان الأمّة كلّه.

ولا يقتصر الأمر على ذلك، فهناك شخص آخر غير مسلم له حق واجب على المؤمن وهو دعوته إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله وهدايته إلى سبيل الرشاد، وقد كان الأنبياء الذين هم أرفع الناس منزلة عند الله سبحانه، خير مثال على الحرص على توظيف الوقت انتصارا لدين الله تعالى، فهذا نوح عليه السلام يسجل القرآن له عمله الصالح: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾**[٥: نوح] وقدّم وقت الليل لأنّ صفاء النفوس فيه أكثر، والعقول فيه أوعى، وهو لم يفتر عن الدعوة إلى دين الله في ليل ولا نهار.

إنّ هذه الطرق متداخلة، وهذا التداخل يعبّر عن وحدة الكينونة الإنسانية في تفاعلها مع نصوص الوحي. والحياة خارج هذه الطرق حياة في فراغ قاتل ينشأ عنه آلام وأحزان، وينشأ عنه ضياع وخسران.

لقد تبيّن أنّ استثمار الوقت يعدّ طريقا ممهّدا للحياة الأبدية، فالوقت هو رأس مال الإنسان في هذه الحياة، فاستثمار كلّ دقيقة منه في تحقيق ما أوجبه الله عليه وما بيّنه له من وظائف ومهامّ من تحقيق العبودية له سبحانه، وعمارة الأرض في ضوء حقائق الوحي وهداياته، يؤدّي إلى أن يكتسب الإنسان حياة أبدية خالدة، فقد بيّن القرآن الكريم أنّ الله تعالى اشترى من المؤمنين حياتهم، أي: أوقاتهم، واشترى أموالهم، وأبدلهم بهما حياة باقية خالدة، يقول سبحانه: **﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[١١١: التوبة]، قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنّه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنّة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنّه قبل العوض عمّا يملكه بما تفضّل به على عبيده المطيعين له"(٦٢) لقد أبدلهم الله تعالى بما وهبهم من وقت ومال حياة خالدة أبدية، فبذل الحياة الفانية في سبيل الله تعالى يورث حياة خالدة.

وأحياناً، يسمّي القرآن إنفاق الوقت فيما يحبّه الله سبحانه ويرضاه تجارة، يقول سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[١٠-١٢: الصف] ودلالتها في استثمار الوقت أنّ القرآن الكريم سمّى بذل النفس والمال في الطاعة والجهاد والإيمان تجارة، فهو ينفق وقته في سبيل تحقيق الربح في هذه التجارة؛ لأنّ فيّها ربحا لا نظير له في الأعراف التجارية كلّها، فالحياة الفانية أورثت عمرا باقيا، وحياة خالدة لا هموم فيها ولا آلام ولا أمراض ولا أحزان.

إنّ عمر الإنسان الفاني يتضمن عمرا باقيا من حيث حياته القلبية والروحية اللتان تحييان بالمعرفة الإلهية والمحبة الربانية، وهذا العمر الفاني ينتج عمرا باقيا في دار الخلود؛ لأنّ حكم الزمن متفاوت في دائرة جسم الإنسان ودائرة نفسه ودائرة قلبه ودائرة روحه، فبينما ترى حياة الجسم وبقائه محصورة في اليوم الذي يعيش فيه، أو في ساعته، وينعدم أمامه الماضي والمستقبل إذا بك ترى دائرة حياة قلبه وميدان وجوده يتسع ويتسع حتى يضم أياما عدّة قبل حاضره وأياماً بعده، بل إنّ دائرة حياة الروح وميدانها أعظم وأوسع بكثير حيث تَسعُ سنين قبل حياته الحاضرة وسنين بعدها، وبناء على ذلك فإنّ ثانية واحدة يقضيها الإنسان في طاعة الله وفي سبيل محبته ومعرفته وابتغاء مرضاته تعدّ سنة كاملة، بل هي حياة باقية لا يعتريها الفناء، بينما سنة كاملة من العمران إن لم تكن مصروفة في سبيله سبحانه فهي زائلة حتماً، وهي في حكم لحظة خاطفة، فمهما تطل حياة الغافلين فهي لحظات لا تجاوز ثانية واحدة. إنّ ثانية واحدة يقضيها الإنسان في مرضاة الله تعدّ نافذة على حياة دائمة باقية، لذلك فسعادة الإنسان ووظيفته الأساس إنّما هي التوجّه إلى ذلك الباقي بكامل جهوده وجوارحه، وبجميع استعداداته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفطرية[٦٣]. لتحقيق كمالاته النفسية والمعنوية في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

لقد كشفت نصوص الوحي عن العلاقة الإيجابية الوديّة بين العمل الصالح والوقت على صعيد العلاقات الاجتماعية؛ فالإنسان قد يُنسأ له في أجله إن وصل رحمه، ففي الحديث الشريف قوله ﷺ: من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه"[٦٤]. قال ابن حجر: "معنى ينسأ له في أثره، أي: في أجله، وسمي الأجل أثر؛ لأنّه يتبع العمر، قال زهير:

والمرء ما عاش ممدود له أمــل

لا ينقضي العمر حتى ينتهي الأثر

وأصله: من أثر مشيه في الأرض، فإنّ من مات لا يبقى له حركة، فلا يبقى لقدمه في الأرض أثر"[٦٥] وإطالة أجل الإنسان تحتمل معنى أن يبارك الله في عمر هذا الإنسان ويمدّ له فيه بالأعمال الصالحة. وهذا من فضائل استثمار الوقت في أعمال البرّ والتقوى الهادفة إلى توثيق عرى الروابط الأسرية والاجتماعية.

المبحث الثالث
توظيف الوقت في إعمار الكون

إذا كان القرآن قــد أولى إعمار العلاقة مع الله عناية بالغة فذلك لأنّها المنطلق والأساس في بناء العلاقات الأخرى هذا من جانب، ومن جانب آخر، فللردّ على الماديين الذي أفرطوا في العمل الدنيوي حتى أفسدوا على الخلق معيشتهم وحياتهم من جرّاء أعمالهم التي طفحت بمعصية الله تعالى، فهم لا يأبهون للعمل الصالح وطاعة الله سبحانه، وعليه، فلا مانع من المجون وتقديم الخمور، وإقامة الحانات والنوادي الليلية، واقتراف الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإماتة الخلق والفضيلة والحياء والعفّة إذا كان هذا يدرّ دخلا على الدولة تحت شعار تشجيع السياحة أو الاستثمار السياحي، هذا هو الأسلوب الذي يعتقدون أنّهم به يعمرون الحياة والكون، وفاتهم أنّه أسلوب مؤذن بخراب الدولة وفسادها واضمحلالها.

ولأجل أن يستكمل الوحي عرض حقائقه عن الوقت وأهمية استثماره؛ فإنّه يبقى جانب واحد من استثمار الوقت بالعمل، ويتمثل في إصلاح العلاقة مع الكون تسخيراً وارتفاقاً واكتشافاً لسنن الله المودعة فيه، ومن المفيد أن نذكر هنا أنّ آيات القرآن التي تشير إلى مبدأ تسخير ما في الكون للإنسان قد بلغت تسعاً وعشرين آية، أمّا الآيات التي تشير إلى مبدأ السير في الأرض لاكتشاف آثار فعله سبحانه في هذا الكون، وللوقوف على الدلائل والعبر المستفادة ممّا ووقع في التاريخ، ومما أبدعه الخالق الجليل جلّ جلاله من مظاهر الخلق فقد بلغت خمس عشرة آية كلّها تدعو الإنسان إلى السير في الأرض. هذا العدد الكبير من الآيات يؤكد قيمة استثمار الوقت في اكتشاف سنن الله تعالى في الكون وآثار صنعه وتجليات قدرته ورحمته وحكمته فيه. وهذا السير والنظر في الكون يعدّ من فرائض الكفاية على مجموع الأمة، لأنّه يؤدّي إلى اكتشاف سننه تعالى الطبيعية والاجتماعية. ويعدّ الوقوف على هذه السنن من العوامل المهمة في إعمار الكون وتحقيق الرقيّ المادي.

لقد سخّر الله تعالى للإنسان: الشمس والقمر والليل والنهار والفلك والأنهار والبحر، وسخّر ما في السموات والأرض؛ ليحقّق الإنسان المعنى الحقيقي لعمارة الأرض، وليجلّي معنى الاستخلاف فيها.

هذا الكون بينه وبين الإنسان مصالحة ووئام، بل صداقة حميمة وعلاقة طيبة وطيدة، فيحسن بالإنسان أن يحسن التعامل معه، "إنّ هذا الكون يبيّنه القرآن الكريم كتابا بليغا، كتبه الأحد الصمد، ومدينة منسّقة عمّرها الرحمن الرحيم، ومعرضا بديعا أقامه الربّ الكريم لإشهار مصنوعاته، فيبعث بهذا البيان حياة في تلك الجمادات، ويجعل بعضها يسعى لإمداد الآخر، وكلّ جزء يغيث الآخر ويعينه كأنّه يحاوره محاورة وديّــة صميمة، فكلّ شيء مسخّر، وكلّ شيء أنيط به وظيفة وواجب"[٦٦]. وعلى الإنسان اكتشاف هذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوظائف والعلاقات بين أجزاء الكون ومفردات آيات القدرة الإلهية؛ ليحسن التعامل معها. لقد رافق توجيه القرآن إلى استثمار الكون وتسخيره توجيه آخر بالرفق به وعدم إيذائه، بل الإحسان إليه لتتم عملية الارتفاق بأمان ويسر، وحذّر من السلوك المفسد للكون، كما في قوله سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] وقد يفسّر ظهور الفساد بما يقوم به الإنسان من سلوك مدمّر للكون من خلال ما تنتجه مصانعه من تلوث وتجارب إبادة لأسباب الحياة، وقد يفهم منها سلوك الإنسان الذي ظهرت مفاسده وفواحشه وانتشر فسقه في البرّ والبحر أقول إنّ الكون لم يأته الفساد إلا ممّا جنته عليه يد الإنسان، فلا عجب أن نرى القرآن يولي عناية فائقة لتهذيب الإنسان وتربيته وإصلاحه.

إنّ العمل وإن بلغ في الضآلة كمّا لا يؤبه له كإماطة الأذى عن الطريق الذي لا يستغرق إلا القليل من الوقت، إلا أنّ هذا العمل لا ينفصل عن الإيمان، يقول ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"(٦٧). وإماطة الأذى عن الطريق سبيل إصلاح في البيئة والكون الذي يعيش فيه الإنسان، ولن يستهلك وقت الإنسان إلا في عمل بنّاء. وهذا يؤدّي إلى فرض الإحساس بالمسؤولية تجاه كلّ ما يسيء إلى الكون مما يعيق استمرار الحياة، أو يعطّل مسيرتها.

ويتجاوز الوحي هذه الحدود البسيطة في ظاهرها العميقة في مدلولها في توجيه الجهـــود نحو العمل، ليضع الوقت أمام أعمال تشكل دعامات الحياة الإنسانية من اقتصاد وصناعة وتجارة وزراعة؛ "فإنّ الوحي الإلهي كما أنّ من أهدافه تحقيق الكمالات المعنوية للناس من تزكية النفس، وسموّ الروح، وتهذيب الخلق، وتقويم السلوك، كذلك أراد منهم أن يحقّقوا الكمالات المادية، فكلّ معجزة من معجزات الأنبياء -مثلا- تشير إلى خارقة من خوارق الصناعات البشرية، إنّ يد المعجزة هي التي أهدت إلى البشرية الكمال المادي، مثلما أهدت إليها الكمال المعنوي، إنّ قصص الأنبياء ومعجزاتهم تهدف إلى تشويق البشر وتشجيعهم على السعي للوصول إلى أشباه هذه المعجزات، كأنّ القرآن بتلك القصص يضع أصبعه على الخطوط الأساسية ونتائج نهايات مساعي البشر للترقي في الاستقبال الذي يبنى على مؤسسات الماضي الذي هو مرآة المستقبل، وكأنّ القرآن يمسح ظهر البشر بيد التشويق والتشجيع قائلا له: اسع واجتهد في الوسائل التي توصلك إلى بعض تلك الخوارق"(٦٨). وللتدليل على ذلك ننظر في عامل اختصار الوقت مثلا في إعمار الكون.

اختصار الوقت من عوامل إعمار الكون:

حتى تسهم الأمّة في إعمار الكون، ويتحقّق لها بذلك شهود حضاري بين الأمم، لا بدّ أن تعمل على اختزال الوقت واختصاره، فهي لا تحتاج إلى أن تبدأ من الصفر حتى تصل إلى مصافّ الأمم المتقدّمة ماديا، بل عليها أن تقوم بهضم المنجز الحضاري القائم والبناء عليه، وعلى قدر اختصارها للوقت -في عملية الهضم- تتحقّق نهضتها وتقدّمها. لقد أتيح للغرب أن يطلع على تراث المسلمين في المعارف الدنيوية والعلوم الطبيعية، واستطاع أن يهضمه ويتفوّق عليهم في المنجزات الماديّة كمّاً وكيفاً.

ولقد جسد القرآن الكريم هذه الحقيقة من ناحيتين:

الأولى: أنّه اختزل الزمان كلّه بتنزيل القرآن الكريم، من حيث إنّ الفترة التي نزل فيها القرآن وهي ثلاثة وعشرون عاما مثلت عمر البشرية إلى قيام الساعة، وبذلك يفهم وفاؤه بحاجات الإنسان المتجدّدة دون الوقوف عند حدود الزمان أو المكان، فامتدت صلاحيته وفاعليته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو قادر على مواكبة حياة الناس إلى يوم الدين دون أن يحتاجوا إلى تشريع آخر، أو وحي جديد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الثانية: أنّ تنزيله قد تمّ على أساس من التدرّج والتنجيم؛ لحكم عديدة، من أهمّها: مراعاة القدرة الإنسانية من حيث الوعي والفهم والاستيعاب؛ لترسيخ معاني كلّ نجم في النفس، ولتتجلّى آثاره في الواقع بعد ذلك، وهو ما يمثل عملية الهضم الذهني والمعرفي، وقد تمّ ذلك في أقصر فترة ممكنة! وهكذا دخل الوقت عنصرا فاعلا في عملية تأهيل تربوي فريد لذلك المجتمع، فحقّق عملية تغيير شاملة، وحقّق نهضة حضارية رائدة.

كذلك، فإنّ الخطاب القرآني لم يقف عند حدود الأمر بالعمل والحثّ عليه، ولكنه دعا إلى ذلك على صورة توحي بأنّ العمل فرصة يجب اغتنامها واقتناصها؛ وذلك لما ينتظر العامل من ثواب عظيم وجزاء كبير يعدّ من حيث القيمة أضعاف هذا العمل. ولم يفرّق القرآن في هذا الأسلوب بين عمل يعود على الفرد بالنفع والخير، وعمل له اتصال بواقع حياة الإنسان والأمّة مما يؤدّي إلى إعمار الكون، ومن ثمّ نهضة الأمّة ورقيّها.

وللتمثيل على ذلك، فقد كانت آية نبيّ الله زكريا في رجائه الولد آية متعلقة بالوقت، قال تعالى: **﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾** [٤١: آل عمران]، وقال تعالى: **﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾**[١٠: مريم] لقد وظّف الوقت هنا ليكون آية بيّنة لنبيّ الله زكريا، وكأنّ حصول المقصود لا يتمّ إلا بثمن من الطاعة كبير، فطلب إليه أن يجمع وقته ثلاثة أيّام بلياليها في ذكره الله والتسبيح له سبحانه بالعشيّ والإبكار؛ ليدلّنا على أنّ توظيف الوقت بهذه الكثافة يصنع الآيات، ويحقّق الخوارق في عالم الشهادة.

يقول أبو مسلم الأصفهاني فيما نقل الرازي عنه: "إنّ المعنى أنّ زكريا عليه السلام لما طلب من الله تعالى آية تدلّه على حصول العلوق، قال: آيتك أن لا تكلم، أي: تصير مأموراً بأن لا تتكلم ثلاثة أيام بلياليها مع الخلق، أي: تكون مشتغلاً بالذكر والتسبيح والتهليل معرضاً عن الخلق والدنيا، شاكراً لله تعالى على إعطاء مثل هذه الموهبة، فإن كانت لك حاجة دلّ عليها بالرمز، فإذا أمرت بهذه الطاعة فاعلم أنّه قد حصل المطلوب(٦٩).

وسرّ توظيف الوقت كما ذكر ابن عاشور أنّ الله تعالى جعل حُبْسة لسانه عن الكلام آية على الوقت الذي تحمل فيه زوجته؛ لأنّ الله صرف ما لَه من القوة في أعصاب الكلام المتصلة بالدمَاغ إلى أعصاب التناسل بحكمة عجيبة... أوْ أمره بالامتناع من الكلام مع الناس إعانة على انصراف القوة من المنطق إلى التناسل(٧٠).

إنّ دلالة الآية بالنسبة لنا واضحة من حيث توجيه العباد إلى قيمة بذل الوقت في سبيل الطاعة والقربى من الله وما له من أثر وانعكاس ومؤشر على تحقيق خيرات هي في عداد المستحيلات في ظنّ البشر!

وكذلك كانت آية سليمان متعلقة بالوقت، فحين طلب إحضار عرش ملكة سبأ، كانت المباراة والتنافس في أيّهم يختصر الوقت في إحضاره، قال تعالى: **﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾**[٣٨-٤٠: النمل].

لقد شدّ القرآن بهذه الآية البيّنة على أيدي من اهتدى بهدي القرآن بأن يختصر الوقت الطويل؛ لإنجاز العمل العظيم الذي يتطلب قوّة خارقة، وعملا جبّارا، فكأنّ هذه الآية نصبت لشحذ الهمم، والتسابق في اختصار الوقت، وقد بدأ منذ زمن تتحقّق مثل هذه الآيات في جهود البشر، والمستقبل يخفي المزيد من السرعة الهائلة في اختصار الوقت، ولكن هذا تحقّق –وللأسف- على أيدي غير المسلمين، أما المسلمون فلم يدرك أكثرهم قيمة الوقت واختصاره، لا حكومات ولا مؤسسات ولا أشخاص. إنّ هذه المناظرة –كما ذكر ابن عاشور-

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ترمز إلى أنّه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتى بالقوّة[٧١] وهذا يؤكد أنّ الوقت عنصر مهم في بناء النفس على الصعيد المعنوي، وإعمار الكون على الصعيد المادي.

إنّ توظيف العلم من أجل اختصار الوقت ميدان مهم من ميادين إعمار الكون بسرعة كبيرة، وإذا انعكس هذا على حياة الإنسان فلا شكّ أنّ عمره القصير هذا سيؤدّي إلى إنجاز أعمال كبيرة، وصناعة منجزات عظيمة، والواقع يشهد على ما سجّله الإنسان من منجزات مفيدة من أهمّ مجالاتها اختصار الوقت في إنتاج المحاصيل الزراعية، وتوفير الأمن الغذائي للناس، إضافة إلى الأمن الاجتماعي، إنّ اختصار الوقت في حلّ مشكلات الإنسان وأزماته ما زال في مراحله الأولى، أو هو بعيد عن اهتمامات الإنسان، أو هو خاضع لهوى الإنسان وما يحمل من فكر وعقيدة يسخرها للتضييق على أخيه الإنسان، فإنّ جئت تعلّل –مثلاً- سبب الغلاء المعيشي الذي أقضّ مضاجع معظم الناس وتسبّب في فقر مدقع لشرائح كبيرة منهم، هذا في مقابل حياة مترفة تعيشها الأقلية المهيمنة! ستجد الجشع وحبّ الهيمنة على الآخرين هو السبب الرئيس وراء هذا الحال، وإلا فبالإمكان توظيف الوقت هنا ليكون عنصرا مفيدا في رسم سياسات الإنجاز على الصعيد المادي الذي تتفتّح آفاقه على أكثر من مجال من زراعة أو صناعة أو تجارة، والذي يكتسب صفة الشمولية في عملية بناء النهضة في نسيج الأمّة وحضارتها. إنّ اختصار الوقت يقضي على مقولة أو خرافة المجاعة العالمية.

لقد أكدت نصوص الوحي شمولية العمل في إعمار الكون، ورسخّت في ذهن المسلم قاعدة مهمّة هي قاعدة الاستعداد لبناء حضارة عميقة الجذور في نفس الإنسان وفي واقعه، تنطلق هذه القاعدة من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾[٦٠: الأنفال] لإحداث عملية بناء معنوي للإنسان، وإحداث منجز حضاري مادي في أرض الواقع. ويمكن لعملية البناء على هذين الصعيدين أن تلبي احتياجات الأمّة في حالتي التحدّي والمواجهة إذا ما تعرضت لهما، أو اضطرت إلى خوض غمارهما.

ولا يصح للأمّة أن تخلو عن الاستعداد بحال، حتى يصل الأمر إلى الطلب من المؤمن وحثّه ليكون في أقصى درجات الاستعداد والجاهزية، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[٧: الزلزلة] والوقت الذي ينجز فيه مثقال ذرّة من عمل وقت متناه في القلّة، ويمكن توظيفه في عمل عظيم، واستثمار هذا الوقت القليل في مخاطبة النفس بعمل صالح، وقربة عظمى من القربات إلى الله تعالى حتى لو بلغت مثقال ذرّة، واستغرقت من الوقت طرفة عين، ففي قوله ﷺ: "من مات ولم يغز، **ولم يحدّث به نفسه**، مات على شعبة من النفاق"[٧٢]. توظيف لأقل القليل من الوقت الذي يستغرق حديث النفس في الاستعداد والجاهزية توقعاً لكل أمر، واستثماراً للوقت في كلّ حين يخلو الإنسان فيه بنفسه.

لقد بلغت نصوص الوحي الذروة في حثّها على شغل النفس بأحاديث العمل الصالح، والحذر من إشغالها بالعمل الفاسد، والظن السيّيء، والتفكير الباطل؛ ففي الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ قال: "قال الله عزّ وجل: إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، ... الحديث"[٧٣]. فالخاطر الذي يمر بقلب الإنسان إن توجّه إلى خير فإنّ صاحبه يثاب عليه حتى لو كان إماطة أذى من طريق.

إنّ إصلاح شؤون الحياة الدنيا وإعمارها بما يرضي الله تعالى قضية أولاها القرآن عناية فائقة في سياق حديثه عن توظيف الوقت فيما ينفع، وتجلى ذلك في قضيتين: الجهاد في سبيل الله والعلم، أما ما يتصل بالجهاد الذي يحفظ هيبة الأمة وكرامتها وتحقيق النصر لها فقد ورد في سياق تحقيق الاستعداد والجاهزية القتالية وقد تخيّر لتدبير شؤون الجند وتفقد الآلة العسكرية وقت الغدوّ والعشي، وكان وقت العشيّ وحده هو الوقت المناسب لذلك في فعل نبيّ الله سليمان،: ﴿إِذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ[٣١: ص]. أما نبيّ الله محمّد ﷺ فقد تخيّر له وقت الغدوّ وحده، وتمّ توظيف من أجل تهيئة الجيش والاستعداد العسكري كما في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**[١٢١: آل عمران].

وتخيّر وقت الصبح الذي تم توظيفه من أجل إهلاك العدوّ والإغارة عليهم وفيما لا يسرّ الإنسان من سطوة غضب الله وسخطه سبحانه، فكل ما ورد فيه من "**أصبح**" و"**صبّح**" كان في مواطن الذمّ والتحذير من وخيم العاقبة. ومن المواطن الإيجابية التي يتمّ فيها مباغتة العدوّ وقت الصبح، لقوله تعالى: **﴿فالمغيرات صبحا﴾**[٣: العاديات] فالحرب خدعة، وهي أوقات يحرص المسلم فيها على مباغتة العدو من حيث لا يشعر، ولا يحتسب.

وأما ما يتصل بالعلم فقد تمّ توظيف الوقت ليكون مؤشرا على تحقيق علوم نافعة يعرف بها سر انتظام هذا الوجود وعظمة خالقه، فالوقت هنا يعدّ وسيلة إلى علوم نافعة في حياة الإنسان فبتلك السنّة الإلهية الثابتة دعا القرآن إلى تحقيق مكاسب معيشية من الناحية المادية، وعلوم نافعة كتعلّم عدد السنين والحساب بصفة خاصة وعلم الفلك بصفة عامة، قال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾**[١٢: الإسراء] فتعاقب وقت الليل ووقت النهار آية إلهية وسنّة كونية تستحق النظر والتفكر، وهي مفتاح علوم نافعة.

وهكذا يظهر أنّ العمل شامل لما تبذله الجوارح وما يبذله العقل وما يبذله القلب ولا تقتصر ثمرته على إعمار الكون فحسب، بل يمتدّ إلى الحياة الآخرة كذلك. وبهذا التوظيف للوقت يمكن للأمة أن تصحو من نومها، وتفيق من سباتها، وتستيقظ من غفوتها أو غفلتها، فتأخذ بزمام الأمر، وتتقدّم نحو الرقيّ والنهضة والشهود الحضاري فتضع كل ثانية من الوقت مكانها في سلم التنمية والعمل والإنتاج. وبذلك شمل هذا التوظيف كلّ مطالب النفس الإنسانية من علم وعمل، ومن غذاء للروح والعقل، ومن بصيرة في الاعتقاد والفكر، على مستوى الأفراد وعلى مستوى مجموع الأمّة.

الخاتمة:

لقد توصلت الدراسة إلى عدّة نتائج يمكن إجمالها في ما يأتي:

إنّ الوقت في حياة الإنسان هو الفترة الممتدّة من الميلاد إلى الممات، وقد ورد في القرآن بمعنى الأجل المفروض لنهاية الحياة الدنيا وبدء الحياة الآخرة؛ فارتبط مفهومه بعقيدة من العقائد القرآنية الكبرى؛ ليلبي غريزة من غرائز الإنسان الفطرية، وهي حبّ البقاء وعشق الخلود في حياة آمنة ليست الحياة الدنيا ميدانها، فما الحياة الدنيا إلا وسيلة الوصول إليها باستثمارها بالإيمان والعمل الصالح.

إنّ توظيف الوقت من الفرائض الغائبة عن ذهن الأمة ووعيها، وأنّها إزاء توظيف القرآن لقضية الوقت في درجة من الغفلة حالت بينها وبين الرقيّ والنهضة، ومـا زالت هذه الغفلة عن قيمة الوقت تتسبب لها بخسائر مادية كبرى، وليس بإمكانها أن ترقى ماديا ومعنويا حتى تحسن التعامل مع الوقت توظيفا واستثمارا، وتقضي على مشكلة "وقت الفراغ" الذي لا حضور له في التصوّر الإسلامي عن الوقت، وتدرك أنّ كل دقيقة من الوقت لها مكانها من سلمّ التنمية وأثرهـا في كمّ الإنتاج. وما حقّقت الأمة نهضة حضارية في مختلف الصعد إلا بحسن توظيفها للوقت واستثمارها له، خاصّة عند العلماء الذين توجّهوا لدراسة معارف الوحي وعلوم الشريعة.

لقد سجل القرآن الكريم حقائق كبيرة في توظيف الوقت واختصاره فيما خطّه ورسمه من آيات خارقات جرت على أيدي بعض الأنبياء والمرسلين كسليمان وزكريا ومحمّد عليهم الصلاة والسلام، وتلا على مسامعها في بعض هذه الآيات كيف يختصر الوقت، وبذلك يكون قد وضع خير أمّة أخرجت للناس على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جادّة الطريق في عملية النهضة والشهود الحضاري بين الأمم.

لقد بيّنت نصوص الوحي أنّ الوقت شيء مهمّ في حياة الإنسان وهو مسؤول عنه بين يدي الله تعالى، وعلّمت الإنسان كيفية تنظيم الوقت وحسن توظيفه، وبيّنت أثر الوقت في نهضة الأمّة، وحذّرت الإنسان من إضاعته. لقد تمثل توزيع الوقت في ضوء نصوص الوحي إلى ثلاثة ميادين: إعمار الصلة بالله، وإعمار الصلة بالناس، وإعمار الصلة بالكون تسخيرا وارتفاقا.

وبرزت في هذه الدراسة إحدى الظواهر الفريدة في القرآن الكريم التي تمثلت في إعمار كلّ ساعة من ليل أو نهار في تسبيح أو حمد أو صلاة أو ذكر أو قيام أو سجود لله ربّ العالمين، لأنّ هذه الأعمال من شأنها أن تقوّي النفس وتوثق الصلة بالله تعالى. وأنّ توظيف الوقــت في هذه المجالات التي تتم في إطار العناية بالنفس وإعمار الصلة بالله لا ينفك عن عملية النهضة والشهود الحضاري.

ويأتي إعمار الكون أولوية من أولويات توظيف الوقت في ضوء نصوص الوحي، ليظهر أن عملية توظيف الوقت كما اهتمت بالبناء النفسي والمعنوي للإنسان، كذلك اهتمت بالبناء المادي الذي يفتح للإنسان كتابا آخر لله تعالى هو كتاب منظور تتجلى فيه آيات القدرة والإبداع الإلهي؛ ليسخّر الإنسان وقته للانتفاع ممّا أودع الله تعالى فيه من سنن، واكتشاف ما فيه من نواميس، واتّخاذ هذا الكون صديقا مرشدا إلى عظمة الصانع الجليل سبحانه وتعالى.

والحمد لله ربّ العالمين

الهوامش:

(١) انظر: مالك بن نبي، **شروط النهضة**، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١، ص١٤٠.

(٢) مصطفى البسيوني، "تكلفة الوقت الضائع بالأجهزة الحكومية بسلطنة عمان"، **مجلة الإداري**، العدد ٤١/ ١٩٩٠، انظر: ص٧٨-٩٠. مع العلم أنّ الدراسة أجريت سنة ١٩٨٩. وأنّ عدد موظفي القطاع العام سنة ١٩٨٨ بلغ ٧٥١٠٩ موظفا، فكيف حين يعدّ الموظفون بمئات الآلاف أو الملايين في العالم الإسلامي فما حجم الخسارة الناجم عن التهرب من العمل في مؤسسات القطاع العام على مستوى مجموع الأمّة؟ وانظر: على زايد بريمه؛ "انتظام الدوام في الأجهزة الحكومية بسلطنة عُمان"، **مجلة الإداري**، العدد: ٤١، سنة ١٩٩٠، ص٣٣. وتقول دراسة أخرى إنّ عدد الموظفين سنة ٢٠٠٠ بلغ ٢٣٦ ألفا، ص١١١. انظر: أمة اللطيف شيبان، "نشاط تخطيط القوى العاملة في الأجهزة الحكومية بسلطنة عمان"، **مجلة الإداري**، العدد ٧٣، السنة ١٩٩٨. وهذا يعنى أنّ خسارة القطاع الحكومي تتناسب طرديا مع زيادة عدد الموظفين، وستكون الخسائر بالمليارات كل سنة إذا لم تعالج الأزمة معالجة جادّة!

(٣) نادر أبو شيخة، **إدارة الوقت**، دار مجدلاوي، عمّان، ١٩٩١م، ص١٢٨.

(٤) جمال سلطان، "إشكالية وقت الفراغ ثقب في مشروعنا الحضاري"، **مجلة المسلم المعاصر**،١٩٩٠، العددان (٥٥، ٥٦)، ص١٥-١٧.

(٥) عبد الفتاح أبو غدّة، **قيمة الزمن عند العلماء**، مكتب المطبوعات الإسلامية، دمشق، ١٩٨٤، ص٩.

(٦) شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي؛ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (بلا تاريخ)، ج٢٥، ص٣٥١

(٧) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي، **صيقل الإسلام**، ترجمة: إحسان الصالحي، سوزلر للنشر، استانبول، ١٩٩٥، ص٥٥. وسعيد النورسي، **اللمعات**، ترجمة: إحسان الصالحي، سوزلر للنشر إستانبول، ١٩٩٣، ص١٧٤. وسعيد النورسي، **إشارات الإعجاز**، تحقيق: إحسان الصالحي، سوزلر للنشر، إستانبول، ١٩٩٤، ص٦٣، ٦٤.

(٨) محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ص٢٢٥.

(٩) النورسي، **اللمعات**، ص٢٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١٠) أحمد بن الحسين البيهقي، **شعب الإيمان**، باب في الزهد وقصر الأمل، تحقيق: محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ، ج٧، ص٣٨١، ح١٠٦٦٣.

(١١) محمد بن عبد الله القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (بلا تاريخ)، ج١٥، ص٣٥٣.

(١٢) عبد الرحمن أبو الفرج ابن الجوزي، **صيد الخاطر**، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩، ص٢٢.

(١٣) محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، **رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه**، تحقيق: عبد الله المديفر، الرياض، ١٤٢٠، ص٥-٦.

(١٤) أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، **المفردات**، تحقيق: محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، (بلا تاريخ)، ص٥٢٩.

(١٥) المبارك بن محمد الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر الزاوي وزميله، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩م، ج٢، ص ٣١٤.

(١٦) محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح**، متن فتح الباري، نشر دار الإفتاء السعودية. كتاب التعبير، باب القيد في المنام، (بلا تاريخ)، ج١٢، ص٤٠٤، ح٧٠١٧.

(١٧) انظر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، نشر دار الإفتاء السعودية، الرياض، (بلا تاريخ)، ج١٢، ص٤٠٥-٤٠٦.

(١٨) محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، **التبيان في أقسام القرآن**، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، (بلا تاريخ)، ص٥٦.

(١٩) البخاري، **متن فتح الباري**، كتاب الرقائق، باب من بلغ ستين سنة، ج١١، ص٢٣٨، ح٦٤١٩.

(٢٠) انظر: عبد الرؤوف المناوي، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢م، ج١، ص٥٥٧.

(٢١) يوسف القرضاوي؛ **الوقت في حياة المسلم**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١م، ص٦٨.

(٢٢) محمد بن عيسى الترمذي، **كتاب السنن**، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة، (بلا تاريخ)، ج٤، ص٦١٢، ح٢٤١٧.

(٢٣) جمال سلطان؛ **إشكالية وقت الفراغ**، ص٢١.

(٢٤) البخاري، **متن فتح الباري**، كتاب الطب، باب شرب السمّ والدواء به، ج٥، ص٢١٧٩، ح٥٤٤٢.

(٢٥) أحمد بن حنبل الشيباني، المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة، (بلا تاريخ)، ج٢، ص١٨٧.

(٢٦) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار الفكر، بيروت، (بلا تاريخ)، ج٨، ص٢٤٤.

(٢٧) الترمذي، **كتاب السنن**، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، ج٤، ص١٧٤، ح١٦٣٧.

(٢٨) انظر: **شروط النهضة**، ص١٤١، ١٤٢.

(٢٩) محمد بن عمر الرازي، **مفاتيح الغيب**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م، ج٢٩، ص٢٣٥.

(٣٠) المصدر السابق نفسه، ج٩، ص٥.

(٣١) محمد البهي؛ **تفسير سورة المؤمنون**، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٣٦.

(٣٢) انظر: مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص١٤٠، ١٤١.

(٣٣) أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب الرقاق، دار الكتاب العربي، بيروت، (بلا تاريخ)، ج٤، ص٣٠٦، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣٤) الترمذي، **كتاب الزهد**، باب ما جاء في المبادرة بالعمل، ج٤، ص٢٥٥، ح٢٣٠٦.

(٣٥) المناوي، **فيض القدير**، ج٣، ص١٩٥.

(٣٦) مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنّة بغير حساب، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (بلا تاريخ)، ج١، ١٩٧، ح٣٦٧.

(٣٧) الآلوسي، **روح المعاني**، ج٣٠، ص١٧١-١٧٢.

(٣٨) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سحنون للنشر والتوزيع، تونس، (بلا تاريخ)، ج٣٠، ص٤١٧.

(٣٩) انظر: جمال سلطان **إشكالية وقت الفراغ**، ص٢١-٢٦.

(٤٠) البخاري، **متن فتح الباري**، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الرقاق، ج١١، ص٢٢٩، ح٦٤١٢.

(٤١) جمال سلطان، **إشكالية وقت الفراغ**، ص٢٠.

(٤٢) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ج١١، ص٢٣٠.

(٤٣) المصدر السابق نفسه.

(٤٤) البخاري، **متن فتح الباري**، كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال، ج١١، ص٣٠٦، ح٦٤٧٣.

(٤٥) البخاري، **متن فتح الباري**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر، ج٧، ص٤٢، ح٣٦٨٨.

(٤٦) عبد الرحمن شهاب الدين أحمد بن رجب الحنبلي؛ **كتاب الذيل على طبقات الحنابلة**، تحقيق: هنري لاووست وسامي الدهان، نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥١م، ج١، ص١٧٦.

(٤٧) المصدر السابق نفسه، ج١، ص ١٨٨.

(٤٨) القرضاوي، **الوقت في حياة المسلم**، ص١١.

(٤٩) الراغب الأصفهاني، **المفردات**، ص ٥٧.

(٥٠) محمد بن أبي بكر الرازي، **مختار الصحاح**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٨.

(٥١) الراغب الأصفهاني، **المفردات**، ص٣٥٨.

(٥٢) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٩، ص١١٠.

(٥٣) محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٠م، ج١٢، ص٧٨.

(٥٤) الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب الدعاء والتكبير ...، ج١، ص٦٨٠، ح١٨٤٧، ح١٨٨٨.

(٥٥) الترمذي، **كتاب فضائل القرآن**، ج١، ص١٧٧، ح٢٩١٤.

(٥٦) محمد الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن**، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، ١٩٩٢م، ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٥٧) محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، دار المعرفة، بيروت، (بلا تاريخ)، ج٤، ص٢٠٧.

(٥٨) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص١٩.

(٥٩) أبو داوُد سليمان بن الأشعث السجستاني، **كتاب السنن**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، (بلا تاريخ)، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ج٤، ص٣٢٤، ح٩٠٥.

(٦٠) أحمد بن شعيب النسائي، **السنن**، كتاب الصيام، باب صوم يوم وإفطار يوم، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدّة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٨٦م، ج٤، ص٢١١.

(٦١) البخاري، **متن فتح الباري**، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه، ج٤، ص٢٠٩، ح١٩٦٨.

(٦٢) إسماعيل بن كثير القرشي، **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢م، ج٢، ص٣٩١.

(٦٣) انظر: بديع الزمان النورسي، **اللمعات**، ص٢٤-٢٧.

(٦٤) البخاري، **متن فتح الباري**، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق، ج١٠، ص٤١٥، ح٥٩٨٦.

(٦٥) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج١٠، ص٤١٦.

(٦٦) بديع الزمان سعيد النورسي، **الكلمات**، ترجمة: إحسان الصالحي،سوزلر للنشر، إستانبول، ١٩٩٢م، ص٥٢٧.

(٦٧) مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الإيمان، باب عدد شعب الإيمان، ج١، ص٦٣، ح٥٨.

(٦٨) سعيد النورسي، **إشارات الإعجاز**، ص٢٣٨.

(٦٩) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٨، ص٤٤.

(٧٠) انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣، ص٢٤٣.

(٧١) المصدر السابق نفسه، ج١٩، ص٢٧١.

(٧٢) مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز ...ج٣، ص١٥١٧، ح١٥٨.

(٧٣) المصدر السابق نفسه، كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد... ج١، ص١١٧، ح٢٠٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com